من أنا..؟

ذات لم تُكتشف بعد



ترجمة: د. أسامة القفاش

د. كارل يونج

من أنا..؟
ذات لم تكتشف بعد

المكتبة النفسية

كارل يونج

من أنا..؟

ذات لم تُكتشف بعد

ترجمة: د. أسامة القفاش

القاهرة - مصر

٢٠٠٩



لمكتبة دار الكلمة Logos
١٦ شارع محمود بسيوني من ميدان عبد المنعم رياض -
الدور٧ شقة ٢١
القاهرة - مصر ت/ ٢٥٧٩٨٤١٤ - ٠١٦١٣٧٣٢٩٨
www.el-kalema.com
Info@el-kalema.com
الطبعة الأولى ٢٠٠٥
الطبعة الثانية ٢٠٠٩
ترجمة كتاب

The Undiscovered Self
By
C. G. Jung

الطباعة والتنضيد: مطبعة الراعي الصالح
الجمع والإخراج الفني: زهور برنابا
تصميم الغلاف: جوزيف يؤنس
المراجعة اللغوية: خالد سمير
الإشراف الفني والإداري: محمد حسن غنيم
رقم الإيداع : ٢٠٠٩٥ / ٢٠٠٨
ISBN :977- 384 -157-X

يونج، كارل
من أنا..؟ : ذات لم تكتشف بعد/ كارل يونج ترجمة أسامة القفاش. - ط
٢. - القاهرة: مكتبة دار الكلمة للنشر والتوزيع، ٢٠٠٩
٧٦ ص ب ٢٠سم. - (المكتبة النفسية)
تدمك X ٩٧٧ ٣٨٤ ١٥٧
١- علم النفس الفردي
أ- القفاش، أسامة (مترجم)
ب- العنوان ١٥٥,٢

المحتويات

من أنا..؟

١

محنةُ الفردِ في المجتمع الحديثِ

ما الذي سيجلب المَستقبل؟

شغل هذا السؤال ذهن الإنسان منذ أقدم العصور، بدرجات متفاوتة. فمن الناحية التاريخية، دائماً ما كانت تتحول أعين الإنسان إلى المستقبل في أمل، محصورة في أزمنة المعاناة المادية والسياسية والاقتصادية والروحية. وعندما تتكاثر التوقعات وأحلام المدن الفاضلة، ورؤى نهاية العالم. فعلى سبيل المثال، يذكر المرء تلك التوقعات الساخنة في العصر الأغسطي مع بداية المسيحية، أو التغيرات التي حدثت في روح الغرب والتي صاحبت نهاية الألفية الأولى. واليوم، ومع إقتراب الألفية الثانية نحيا، مرة أخرى، في عصر يمتليء بصور رؤيوية تنذر بالدمار الشامل.

ما هو مغزى هذا الإنقسام الذي يرمز إليه "الستار الحديدي" والذي يُقسّم الإنسانية إلى نصفين[١]؟ ماذا سيحدث لحضارتنا، وللإنسان نفسه، لو بدأت القنابل الهيدروجينية في الإنفجار، أو إذا سيطر الظلام الروحي والأخلاقي الناجم عن تسلطية الدولة المُطلقة الشمولية على كل أوربا؟

١. كُتب هذا الكتاب قبل إنتهاء الإتحاد السوفيتي وإنهيار الستار الحديدي (المترجم)

لا يوجد سبب يدعونا للإستخفاف بهذا التهديد. ففي كل مكان في الغرب ثمة أقلية هدّامة، تعيش في كنف إنسانيتنا وإحساسنا بالعدالة، وتحمل شرارات مشاعلها الجاهزة، ولا يوجد شيء يحول بينها وبين إنتشار أفكارها إلا المنطق المُرجّح لطبقة واحدة ذكية وثابتة عقليا من السكان. لكن ليس على المرء أن يبالغ في عدد هذه الطبقة وسمكها النسبي. فهي تتغير من حين لآخر وفقا للمزاج القومي. وهي تعتمد في كل إقليم على عدد من المتعلمين بين الناس وتخضع لتأثير عوامل جد متغيرة ذات طبيعة اقتصادية وسياسية. ولو أخذنا الإستفتاءات العامة كمعيار، يجوز للمرء أن يقدرها تقديرا متفائلاً يجعلها في أفضل الأحوال ٤٠٪ من الناخبين. لكن النظرة المتشائمة لن تكون غير مبررة، حيث أن موهبة المنطق والتأمل النقدي ليست من خصائص الإنسان البارزة، وحتى عندما تتواجد يثبت دائماً أنها متأرجحة، غير ثابتة، وكقاعدة كلما زداد تأرجحها كلما كثرت الجماعات السياسية. تسحق الجماعة الجماهيرية حدس وبصيرة الفرد، وهذا يؤدي بالضرورة إلى الطغيان السلطوي، والتلقين، ولو تراجعت الدولة الدستورية وخضعت لنوبة من نوبات الضعف.

يمكننا طرح الدعاوى المنطقية في الحوار مع وجود أمل في النجاح فقط إذا لم يتجاوز الجانب العاطفي في الموقف درجة معينة حرجة. لكن إذا إرتفعت حرارة المشاعر وتجاوزت هذا المستوى، تتوقف تماماً إمكانية أن يكون للمنطق أدنى تأثير وتحل محله الشعارات وتخيلات الأماني الوهمية. بمعنى آخر؛ ينتج نوعاً من المس الجماعي سرعان ما يتطور إلى وباء روحي ونفسي. في هذه الحالة تصعد للقمة كل تلك العناصر التي يتم تقبل وجودها في ظل حجم العقل والمنطق بوصفها عناصر لا مجتمعية. وهؤلاء الأفراد هم حالات نادرة متخفية لا نقابلها إلا في السجون أو مصحات المجانين. لأنه، في تقديري، مقابل كل حالة جنون واضحة ثمة ما لا يقل عن عشرة حالات كامنة لا تصل إلى نقطة الإنهيار الصريح والواضح، لكن أراءها وسلوكها يتأثر بعوامل شاذة مريضة لا

شعورية. وبالطبع لا وجود لأية إحصاءات طبية حول معدل الذهان الكامن لأسباب مفهومة. لكن حتى لو وصل عددها إلى أقل من عشرة أضعاف الذهان الصريح والإجرام الواضح، فإن النسبة المئوية، الضئيلة نسبيا،التي يمثلها هؤلاء البشر تكفي وتزيد بسبب خطورتهم الشديدة. حالتهم العقلية هي حالة جماعة مستثارة كقطيع تحكمة الأهواء والتخيلات والأوهام. هم البشر المتكيفون في حالة المس الجماعي، ومن ثم يحسون بأنهم مرتاحون حقاً، وفي مكانهم الطبيعي. يعرفون من وجودهم ذاته لغة هذه الظروف ويعرفون كيف يعالجونها. تتقبل الجماهير الممسوسة واللامنطقية أفكارهم المجنونة، التي تجد تربة خصبة فتنمو وتترعرع، لأنهم يعبرون عن كل تلك الدوافع والأحقاد التي تسكن معظم البشر الأسوياء، وتكمن تحت ستار من المنطق والعقل. ومن ثم فهم خطرون بالرغم من عددهم الضئيل مقارنة بعدد السكان الكلي، إنهم مصدر للعدوى، وبالتحديد لأن هذا المدعو شخص سوي يمتلك قدراً محدودا من معرفة الذات.

معظم الناس تخلط بين "معرفة الذات" ومعرفة شخصية الأنا الشعورية الواعية. أي شخص له شيء من الوعي بالأنا يعتقد أنه من المفروغ منه أنه يعرف ذاته. لكن الأنا تعرف فقط محتوياتها وليس اللاشعور ومحتوياته. يقيس الناس معرفتها بذاتها بمدى ما يعرفه الإنسان المتوسط في بيئتهم الاجتماعية عن نفسه. ولكن ليس بمدى الوقائع النفسية الحقيقية المخفية عنهم في معظم الأحوال. في هذا المجال تتصرف النفس مثل الجسد ببنيته التشريحية والفسيولوجية التي لا يعرف الشخص المتوسط الكثير عنها أيضاً. بالرغم من أنه يحيا فيها وبها، فمعظمها مجهول للشخص العادي، ونحتاج لمعرفة علمية خاصة للحصول على الوعي بما هو معروف في الجسد ولا داعي للحديث عما هو موجود أيضاً.

ومن ثم فما يدعى عادة "معرفة الذات" إن هو إلا معرفة محدودة جداً معظمها يعتمد على العوامل الاجتماعية لما يحدث في النفس

البشرية. ومن ثم يأتي المرء محملاً بتحيز من قبيل أن هذا الأمر لم يحدث "لنا" قط أو لم يحدث "في عائلتنا" أبدا، ولا في جماعتنا أو في محيط أصدقائنا، أو أن يقابل المرء قزميات وهمية أيضاً لخصال متوهمة وتستخدم فقط للتغطية على الوقائع الحقيقية في الحالة.

في حزام اللاشعور الواسع المحصن ضد النقد والتحكم الشعوري، نقف عزٍلا بلا دفاعات ومعرضين لكل أنواع التأثيرات والعدوى النفسية. ومثلما هو الأمر مع كل المخاطر يمكننا الوقاية ضد خطر العدوى النفسية فقط عندما نعرف ما يهاجمنا، وكيف وأين ومتى سيحدث الهجوم. وحيث أن معرفة الذات هي معرفة الوقائع المحددة المفردة فإن النظريات لا تنفع كثيراً في هذا الصدد. فكلما إدعت النظرية قدرتها على التفسيرات الكونية العمومية، كلما قلت منفعتها فيما يخص الوقائع المفردة. أي نظرية تقوم على التجربة والخبرة هي بالضرورة إحصائية، أي أنها تصيغ متوسطاً مثالياً يلغي كل الإستثناءات على طرفي المقياس ويحل محلهم متوسط مجرد. هذا المتوسط صالح للغاية بالرغم من أنه لا يظهر في الواقع. بالرغم من هذا فهو يظهر في النظرية وكأنه واقع أساسي لا يأتيه الباطل. بينما الإستثناءات على طرفي النقيض لاتظهر في النتيجة النهائية بالرغم من أنها وقائع أيضاً، فهي تلغي بعضها البعض. فمثلاً؛ لو حددت وزن كل حجر في كومة زلط وحصلت على متوسط يساوي ١٤٥ جرام، فهذا يخبرني بالقليل جداً عن طبيعة الزلط الحقيقية. وأي من يفكر على أساس هذه النتائج فإنه سيلتقط زلطة وزنها ١٤٥ جرام عند أول محاولة، لابد وأن يستعد لخيبة أمل كبرى، بل قد يبحث ويبحث لمدة طويلة من الزمن ولا يجد زلطة واحدة تزن ١٤٥ جرام.

يُظهَر المنهج الإحصائي الوقائع في ضوء المتوسط المثالي، لكنه لا يعطينا صورة عن واقعها الأمبريقي. بالرغم من أنه يعكس جانباً لا يدحض من جوانب الواقع، فبإمكانه تزييف الحقيقة بأكثر الطرق ضلالاً. وهذا ينطبق، بصفة خاصة، على النظريات التي تقوم على

الإحصاءات. إن أهم مميزات الوقائع الحقة هي فردانيتها. وبدون أن نعطي الموضوع أهمية أكبر مما يستحق، يمكننا القول أن الصورة الحقيقية تتكون من إستثناءات للقاعدة، ومن ثم فإن الواقع المطلق يتميز في الأساس بخاصية إنعدام الإنتظام.

يجب أن نضع كل هذه الإعتبارات في ذهننا كلما ظهر كلام عن نظرية تعمل كدليل لمعرفة الذات. لا توجد، ولن توجد معرفة بالذات تقوم على أساس إفتراضات نظرية، لأن غاية معرفة الذات هو الفرد- وهو إستثناء نسبي وظاهرة غير منتظمة. ومن ثم؛ فليس العمومي والمنتظم هو ما يميز الفرد، لكن بالأحرى المتفرد. لا يجب أن نفهمه كوحدة متكررة رتيبة تعاود الظهور أو فرد في التحليل النهائي لا يمكن أن نعرفه أو نقارنه مع شيء آخر. في نفس الوقت يمكن، بل يجب وصف الإنسان بإعتباره عضواً في نوع من خلال الوحدات الإحصائية، وإلا لن نستطيع أن نقول عنه أي شيء عمومي. للوصول لهذا الغرض لابد لنا من النظر إليه كوحدة مقارنة. يؤدي هذا إلى إنثروبولوجية أو علم نفس صالح عام، وهو شيء هام، يعطينا صورة مجردة للإنسان كوحدة متوسطة نزعت منها كل الخصائص الفردية. بيد أنه تلك الخصائص بالتحديد هي التي تمثل الجانب الأهم عندما نحاول فهم الإنسان. لو أردت فهم كائن بشري فرد، لابد أن أضع جانباً كل المعرفة العلمية عن الإنسان المتوسط، وننسى كل النظريات من أجل تبني إتجاه سلوكي جديد تماماً، وغير متحيز. يمكنني فقط مقاربة مهمة الفهم بعقل مفتوح متحرر حيث تفترض معرفة الإنسان أو الحدس حول شخصية الإنسان كل أنواع المعرفة عن الجنس البشري بصفة عامة.

والآن؛ سواء كانت المسألة هي فهم إنسان أو معرفة الذات، فعلى كل الأحوال لن أترك كل الفرضيات النظرية خلفي. وحيث أن المعرفة العلمية لا تتمتع فقط بالتقدير العام في كل مكان لكنها أيضاً، وفي عيون الإنسان الحديث تعتبر السلطة الذهنية والروحية الوحيدة، فإن فهم الإنسان الفرد يجبرني على إرتكاب أكبر

المعاصي، إن جاز القول، ألا وهي غض الطرف عن المعرفة العلمية. هذه النصيحة غالية جداً، لأن السلوك العلمي لا يمكن أن يخلّص ذاته من إحساسه بالمسئولية. ولو كان عالم النفس طبيباً وأراد أن يصنف مريضه علمياً، وكذلك أن يفهمه ككائن بشري لأصيب بنوع من تضارب المصالح، وتصارع الواجبات فيما بين السلوكين التناقضين في مجال المعرفة. بيد أن هذا الصراع لا يحل عن طريق الآمال ولكن لا بد من وجود نوع من التفكير ذي طريقين: أي أن نفعل شيئاً دونما أن يغيب الآخر عن بصرنا.

وبالنظر لحقيقة أنه من حيث المبدأ فإن المميزات الإيجابية للمعرفة تعمل تجديداً كعيوب عند الفهم، فإن التقدير أو الحكم الناتج من هذا التفكير سيكون على الأغلب شيئاً متناقضاً. فلو حكمنا عليه علميا فما الفرد إلا وحدة تكرر نفسها إلى ما لا نهاية، ومن ثم يمكننا الإستعاضة عنها وتمثيلها بحرف من حروف الأبجدية. على الجانب الآخر فالفهم لا يعتبر إلا ذلك الإنسان الفرد الفريد الذي يجرد من كل المعايير المنظمة وكل أنواع التوافقات العزيزة على قلب العالم، إنه الحاكم بأمره وهو الغرض الحقيقي الجدير بالفحص. يجب أن يدرك الطبيب هذا التناقض قبل كل شيء. فهو مزود في جانب الحقائق الإحصائية التي عرفها عبر تدريبه العلمي، وعلى الجانب الآخر يواجه مشكلة معالجة شخص مريض يحتاج التفهم الفردي خاصة وأنه مريض نفسي. وكلما كان العلاج مجدولاً كلما إزدادت مقاومة المريض، وهو على حق تماماً، وكلما إبتعد العلاج. يرى المعالج النفسي نفسه مجبراً على اعتبار فردانية المريض واقعاً مهماً في الصورة وترتيب طرق العلاج عنده وفقاً لهذا. واليوم؛ وفي مجال الطب بأكمله من المعترف به أن مهمة الطبيب هي علاج الشخص المريض وليس علاج المرض المجرد. هذا المثال في حالة الطب ما هو إلا لحظة خاصة في مشاكل التربية والتدريب بشكل عام. تعتمد التربية على الحقائق الإحصائية أساساً والمعرفة المجردة، ومن ثم تعطي صورة غير حقيقية منطقية للعالم حيث لا يلعب الفرد أي دور

لأنه مجرد ظاهرة هامشية. بينما الفرد، كمعلومة غير منطقية، هو الحامل الحقيقي والأصيل للواقع، إنه الإنسان الحقيقي في مواجهة المثال المعياري غير الحقيقي أو الإنسان السوي الذي تشير إليه العبارات العلمية. والأهم أن معظم العلوم الطبيعية تحاول أن تقدم نتائج فحصها وكأنها وجدت دون تدخل بشري، أو بطريقة تجعل تدخل النفس- وهو عنصر لازم- أمرا غير مرئي. (الأمر الوحيد الذي يمُثل إستثناءا لهذا هو الفيزياء الحديثة والتي أدركت أن الشيء المراقب لا ينفصل عن العالم المراقب) لذا؛ فإن العلم يقدم صورة للعالم يبدو أن نفس الإنسان الحقيقية قد ألغيت منها، وهو النقيض الأساسي للعلوم الإنسانية.

تحت تأثير الفرضيات العلمية، لا يتم فقط إستبعاد النفس ولكن أيضا الإنسان الفرد، وكذلك، في الواقع، كل الأحداث الفردية مهما كانت، تعاني جميعها من حالة تهميش وتقليل من قيمتها، وتتعرض لعملية تعميم تشوه صورة الواقع لتصير وسطا مفاهيميا. علينا ألا نقلل من التأثير النفسي لصورة العالم الإحصائية: فهي تقوم بتنحية الفرد لمصلحة وحدات غير محددة تتراكم لتكون صيغاً كبرى. وبدلاً من الفرد يمدنا العلم عندئذ بأسماء المنظمات، وفي أعلى الصور صورة الدولة المجردة بوضع الواقع المبدئي السياسي. ومن ثم تحل سياسة الدولة (منطق الدولة) محل المسئولية الأخلاقية للفرد. وبدلا من التمايز الأخلاقي والذهني عند الفرد نجد الرفاه الإجتماعي ورفع مستوى المعيشة. ولا يعود هدف ومعنى حياة الفرد (وهي الحياة الحقيقية فقط) هو تنمية الفرد ولكن سياسة الدولة التي تفرض على الفرد من الخارج، وتتلخص في تنفيذ فكرة مجردة تنز في النهاية إلى جذب كل مظاهر الحياة إليها. ويتزايد حرمان الفرد من القرار الإخلاقي حول كيفية أن يعيش حياته الخاصة، وبدلا من ذلك يُحكم ويُغذى ويرتدي ملابسه ويُربى بوصفه وحدة إجتماعية توضع في وحدة السكن الملائمة، وتقضي فراغها وتستمتع بوقتها وفقاً للمعايير التي تمتع الجماهير. وما الحكام بدورهم إلا وحدات

إجتماعية، مثلهم مثل المحكومين، ويتميزون عنهم فقط بحقيقة أنهم أبواق متخصصة في فكر الدولة وأيديولوجيتها. لا ضرورة لأن يكون شيوخاً قادرين على الحكم، لكن الأهم أن يكونوا متخصصين جيدين لا نفع منهم خارج خط عملهم وتخصصهم. تجدد سياسة الدولة ما يجب درسه وتعليمه.

ويقوم أولئك الأشخاص، في قمة المناصب الحكومية القيادية، بالتلاعب بإسم سياسة الدولة في فكر الدولة الأيديولوجي الذي يبدو كلي القدرة، وهذا لأن كل السلطة تتركز في أيديهم. ومن يصل لهذا الموقع، سواء بالإنتخاب أو كنزوة لا يعود خادماً للسلطة، لأنه هو سياسة الدولة ذاتها، وفي حدود الموقف يمكنه فعل ما يريد. يمكنه أن يقول مثلما قال لويس الرابع عشر: "أنا الدولة". فهو الفرد الوحيد، أو على أقل تقدير، واحد من ضمن بضعة أفراد الذين يستطيعون الإستفادة من فردانياتهم لو عرفوا فقط كيف يتمايزون بأنفسهم عن أيديولوجية الدولة. بيد أنهم، على الأغلب الأعم، عبيد لوهمهم الكبير. عادة ما يتم تعويض هذه الأحادية على المستوى النفسي بنزعات تخريبية لا شعورية. وثمة إرتباط دائما بين العبودية والتمرد. ومن ثم نجد أن هذا الكائن، غير العضوي، مستوطن بالتنافس من أجل السلطة، وتسكنه عدم الثقة والشك بكامله من قمة رأسه حتى أخمص قدميه. وأيضاً لتعويض إنعدام الشكل الفوضوي تنتج الكتلة دائماً قائداً وهذا يتحول بدوره إلى ضحية لأناه الشعورية.

وهذه التطورات تصير حتمية تاريخية ومنطقية منذ لحظة إلتصاق الفرد بالآخرين، وضياع فردانيته وتحوله إلى كم مهمل. وبعيدا عن تجمعات الجماهير الضخمة، التي يذوب فيها الفرد، فإن أحد أهم الأسباب المسئولة عن عقلية الجماهير النفسية هي الرشادة المنطقية العلمية التي تسلب الفرد من أصوله وكرامته. فبوصفه وحدة إجتماعية، يفقد فردانيته ويصير رقماً مجردا في مكتب الإحصاء. فبوسعه فقط أن يلعب دور الوحدة القابلة للتغير

ذات الأهمية الضئيلة. عندما ننظر إليه بشكل رشيد منطقي من الخارج هذا بالضبط قدره ومن وجهة النظر هذه يبدو لي أنه من العبث والخطر أن نتكلم عن قيمة أو معنى الفرد. وفي الواقع من الصعب أن يتخيل المرء كيف استطعنا إضفاء كل هذا الإحترام والتكريم على حياة الفرد البشري، بينما الأدلة على عكس ذلك تماما، واضحة وضوح الشمس.

عندما نتخذ هذا الموقف يبدو الإنسان حقاً بلا قيمة، وكل من يريد أن يحاجج هذا يجد نفسه عديم الحجة، ضعيف المنطق في الحال. وما إحساس الفرد بأهميته أو أهمية أفراد عائلته أو أصدقائه المقربين إلا توكيد على ذاتية مشاعره المضحكة. فما قيمة نفر قليل أمام عشرات أو مئات الآلون أو حتى الملايين؟ هذا يذكرني بحجة صديق ذكي علقت معه في جمهرة ضخمة من البشر، حين أعلن فجأة: "هاك السبب المقنع كي تؤمن بالخلود: فكل من تراه من الناس يريد الخلود".

كلما كبرت الجماعة كلما تضائل حجم الفرد، بيد أنه إذا تغلب شعور الضآلة واللا معنى على الفرد وأحس بأن حياته بلا جدوى وفقدت معناها- وهي بالتأكيد لا تعادل رفاه الجماهير أو إرتفاع مستويات المعيشة- فهو على طريق العبودية للدولة، ودون أن يدري أو يرغب، يجد نفسه قناعاً رخيصاً للدولة. إن الشخص الذي ينظر فقط إلى خارجه ويهلع من مرأى الكتائب والجحافل لا يجد موارد يكافح بها تلك الأدلة الدامغة التي تملأ حواسه وتشبع عقله. لكن هذا هو ما يحدث اليوم بالضبط: كلنا مبهورون ومدهوشون من الحقائق الإحصائية والأرقام الكبيرة، وكلنا نرى يومياً عبث ولا معنى الفرد وشخصيته طالما لا تمثلها وتشخصها منظمة جماهيرية. وبالمقابل تعتقد الناس أن تلك الشخصيات التي نراها على المسرح الدولي تلعب أدوارا هامة ونسمع أصواتها عالية ومدوية وتصل لأبعد الأماكن، تعتقد أنها وصلت إلى ما وصلت له على أكتاف حركة جماهيرية أو رفعها تيار الرأي العام، وهي إما تقرظ أو تهان

لهذا السبب. وحيث أن الإيحاء العام يلعب الدور الأساسي هنا فلا أهمية حقا ما إذا كانت تلك الرسالة هي رأيهم الخاص المسئولين عنه شخصياً، وما هم إلا أبواق ضخمة لرأي جماعي.

في هذه الظروف لا عجب أن يزداد شك الفرد في ذاته، وتصير المسئولية جماعية كلما أمكن أن يتخلى عنها الفرد ويمنحها لجسد مؤسسي. بهذه الطريقة يصير الفرد معاملاً من معاملات المجتمع الذي يسلب الحياة الحقيقية دورها، بينما في الواقع المجتمع هو مجرد فكرة مجردة ليس أكثر مثله في ذلك مثل الدولة، كلاهما تشخص إعصاراً مستقلاً. والدولة بصفة خاصة تحولت إلى شخصية شبه حيوية يجوز أن نتوقع منها أي شيء. في الواقع ما هي إلا غطاء مزيف لأولئك الأشخاص الذين يعرفون كيف يتلاعبون بها لمصلحتهم. وهكذا تنساق الدولة الدستورية إلى شكل بدائي من أشكال المجتمعات أي بالتحديد مشاعية القبيلة البدائية حيث الجميع يرزحون تحت حكم فردي من قبل الزعيم أو النخبة القائدة.

٢

الدين كعنصر توازن في مواجهة الذهنية الجمعية

من أجل تحرير أسطورة الدولة ذات السيادة، أو بمعنى آخر، من أهواء أولئك الذين يسيرونها، من كل قيد وشرط، تنزع كل الحركات السياسية الإجتماعية إلى زعزعة الأرض من تحت الأديان. فمن أجل تحويل الفرد إلى ترس في آلة الدولة، لا بد من إلغاء إعتماده على أي شيء آخر بجانب الدولة. بيد أن الدين يعني الإعتماد على وقائع الخبرة اللامنطقية والتسليم لها وبها. وهي لا تشير مباشرة إلى ظروف إجتماعية أو مادية، وإنما تُشير بشكل أكبر إلى سلوك الفرد الروحي والنفسي.

لكن بوسع المرء أن يتخذ إتجاهاً سلوكياً تجاه الظروف الحياتية الخارجية فقط عندما توجد نقطة مرجعية خارجها. ويعطي الدين أو يدعي أنه يعطي مثل تلك النقطة المرجعية، ومن ثم يمكن الفرد من ممارسة حكمه وسلطته وقدرته على الإختيار. إنه يبني مأوى إحتياطياً ضد قوى الظروف الحتمية والواضحة التي يتعرض لها كل فرد وخاصة لو كان يعيش فقط في العالم الخارجي، وليس لديه أي أرضية أخرى يضع قدميه عليها إلا الطوار. لو كانت الوقائع الإحصائية هي الواقع الوحيد فهي السلطة المنفردة. ومن ثم فهناك ظرف واحد وحيد، وحيث لا مناص من هذا الظرف لأن وجود

لبديل لا يصبح الحكم والقرار أمرين تافهين بل يصيرا مستحيلين. وعندئذ يتحتم على الفرد أن يصير معاملاً إحصائياً، وبالتالي معاملاً للدولة أو أي إسم نطلقه على المبدأ النظامي المجرد.

تعلّم الأديان أن ثمة سلطة أخرى في مواجهة "العالم". إن فكرة إعتماد الفرد على الرب تمسك بتلابيب الفرد مثلما يفعل العالم. بل قد يحدث أن يؤدي إطلاق دعوة الإعتماد على الرب إلى تغريب الفرد عن العالم بنفس الطريقة التي يتغرب بها عن ذاته عندما يخضع للذهنية الجماعية. ويمكن للمرء أن يضحي بحكمه وقدرته على إتخاذ القرار في الحالة الأولى مثلما يفعل في الحالة الأخيرة، أي يضحي بقدرته على الإختيار من أجل العقيدة الدينية. وهذا هو الهدف الذي تطمح إليه الأديان بوضوح ما لم تصل إلى نوع من التصالح مع الدولة. ولو حدث هذا فمن الأفضل أن أدعوها معتقَدات وليس ديانات. المعتقَد يعبر عن إيمان جماعي محدد بينما تعبر كلمة دين عن علاقة ذاتية مع عوامل ميتافيزيقية خارقة للعادة. المعتقد هو إعتراف بالإيمان معلن أساساً من أجل العالم ككل ومن ثم فهو معتاد بينما يوجد معنى وغرض الدين في علاقة الفرد بالرب (اليهودية، والمسيحية، والإسلام) أو في طريق الخلاص والتحرر (البوذية). وتنبثق كل الأخلاق من هذه الواقعة الأساسية وبدون المسئولية الفردية أمام الله لا يمكننا أن نطلق عليها أي إسم إلا أعراف شائعة.

وحيث أن المعتقدات هي نوع من المصالحة مع الواقع المعتاد، ترى المعتقدات نفسها مضطرة لإصطناع شفرة تقدمية مضطربة تحتوي آراءها وأفكارها وعاداتها، وبالتالي تطرح الكثير من ذاتها للخارج إلى حد وضع العنصر الديني الأصيل فيها في الخلفية- أي تهميش العلاقة الحية مع نقطة المرجع الخارق للعادة والمواجهة اليومية المباشرة معها.

تقيس المؤسسة المعتقدية قيمة وأهمية العلاقة الدينية الذاتية من

خلال مسطرة الفكر الإعتقادي التقليدي. وعندما لا يكون هذا أمراً متواتراً كما في البروتستانتية يسمع المرء على الفور كلاماً عن المذهبية والإنشقاقية والطائفية والغرائبية وما إلى ذلك، عندما يدعي أحدهم أن العناية الإلهية تقوده وترشده. المعتقد يرتبط بالكنيسة القائمة أو يقوم بتأسيس مؤسسة جماهيرية تضم بين جنباتها ليس فقط المؤمنين الحقيقيين، لكن أيضاً أعداداً ضخمة من الناس يمكن فقط أن نصفهم باللا مبالاة فيما يتعلق بالدين والذين ينتمون إليها فقط عبر قوة الولادة. وهنا سنجد بوضوح الفرق بين الدين والمعتقد. من ثم أن تكون من الملتزمين بمعتقد ليس دائماً أمراً دينياً، ولكنه في الأغلب المعتاد أمر إجتماعي، ومن ثم فهو لا يمنح الفرد أساساً عليه أن يعتمد تماماً على سلطة خارجة عن العالم من أجل الحصول على دعم. المبدأ هنا ليس الخدمات اللفظية لمعتقد ما ولكن الحقيقة النفسية القائلة بأن حياة الفرد لا تتحدد فقط عبر الأنا وأفكارها أو عبر عوامل إجتماعية لكنها تتحد في الأساس من خلال سلطة متسامية.

ليست المباديء الأخلاقية، مهما كانت صارمة، أو المعتقدات مهما كانت أصولية أرثوذكسية، هي التي تؤسس حرية وإستقلال الفرد لكن فقط الإدراك الأمبريقي والخبرة التي لا يأتيها الباطل لعلاقة شخصية مكثفة بين الإنسان وسلطة خارقة للعادة تعمل كنوع من الضبط المقابل للعلم ومنطقه. لن تعجب هذه الصياغة سواء رجل الجماهير أو المؤمن ضمن القطيع. فالأول يرى أن سياسة الدولة هي أعلى مباديء الفكر والعقل. وفي الواقع فهذا هو سبب وجوده وتفكيره وتنويره، ومن ثم فرجل الجماهير يعطي للفرد حقاً في التواجد فقط طالما كان الفرد معاملاً للدولة. على الجانب الآخر فبينما يوافق المؤمن على إدعاء الدولة بأهميتها الأخلاقية والفعلية فهو يعترف بإيمانه بأن الإنسان والدولة التي تحكمه خاضعان لسلطة الرب، وأنه في حالة الشك سيتخذ الرب القرار النهائي وليس الدولة. وحيث أنني لا أدعي أي أحكام ميتافيزيقية، لابد

وأن أترك الأمر سؤالاً مفتوحاً، ما إذا كان العالم بما يعني عالم الظواهر البشرية ومن ثم الطبيعة بصفة عامة هو مقابل أو نقيض الرب أم لا. أستطيع فقط الإشارة لواقع أن التعرض النفسي بين هاتين المنطقتين من مناطق الخبرة لا يظهر فقط في العهد الجديد، ولكنه يتضح أيضاً بشكل كبير في سلوك الدول الديكتاتورية نحو الدين بشكل سلبي وفي الكنيسة نحو الإلحاد والمادية.

ومثلما لا يستطيع الإنسان، بوصفه كائناً إجتماعياً، التواجد على المدى البعيد بدون إرتباطه بالمجتمع فكذلك لن يجد الفرد أي تبرير واقعي لوجوده ولإستقلاله الأخلاقي والروحي في أي مكان إلا في مبدأ خارق للعادة، قادر على التخفيف نسبياً تحت تأثير العوامل الخارجية الطاغية. لا يستطيع الفرد غير المرتبط بالإله أن يقاوم الهجمات المادية والأخلاقية التي يفرضها عليه العالم، وهو يعتمد فقط على موارده الخاصة. كي يستطيع أن يقاوم يحتاج لدليل من خبرة داخلية متسامية تستطيع وحدها أن تقيه من الغرق الحتمي في الجماهير. إن مجرد الحدس الذهني أو حتى الأخلاقي عن مدى عقم وإنعدام مسئولية رجل الجماهير روحيا أو هو إدراك سلبي ولا قيمة له إلا بإعتباره إرتعاشة على طريق درايته الفرد. لأن هذا الحدس منطقي مجرد لذا فهو يفتقد قوة دفع الإيمان واليقين الديني. تمتلك الدولة الديكتاتورية مزية كبرى تميزها عن المنطق البرجوازي: فهي تبلغ الفرد ومعه قواه الدينية. لقد حلت الدولة محل الإله، لذا لو نظرنا إلى الأمر من هذه الزاوية سنرى أن الديكتاتوريات الإشتراكية هي أديان والعبودية للدولة هي نوع من أنواع العبادة. لكن لا يمكن نزع الوظيفة الدينية ولا تزييفها بهذه الطريقة- بدون أن تحدث شكوك سرية يتم كبتها على الفور لتجنب الصراع مع النزعة السائدة نحو الذهنية الجماعية. والنتيجة، كما يحدث دائماً في مثل تلك الأحوال، نوع من التعويض المفرط في شكل التعصب، وهذا بدوره يستخدم كسلاح لدفع أقل محاولة للمعارضة. يخنق الرأي الحر ويكبت القرار الأخلاقي بعنف على

أساس أن الغاية تبرر الوسيلة مهما كانت شناعة الأخيرة. تتحول سياسة الدولة إلى معتقد ويتحول القائد أو زعيم الحزب إلى نصف إله خارج الخير والشر ويصير أقرباؤه أبطالاً وشهداء أو حواريين ومبشرين. ثمة حقيقة واحدة ولا يوجد غيرها. إنها مقدسة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، وهي بالطبع فوق أي إنتقاد. كل من يفكر بشكل مختلف هو زنديق مهرطق تتهدده، كما يخبرنا التاريخ، كل أنواع الأشياء غير اللطيفة. فقط يستطيع زعيم الحزب الذي يجمع في يديه كل السلطة السياسية تغيير عقيدة الدولة تغييراً أصيلاً، وهو يفعل كما يحلو له.

عندما يتحول الفرد عبر الحكم الجماهيري إلى وحدة إجتماعية، رقم كذا وكذا، وتتحول الدولة إلى المبدأ الأسمى، فعلينا أن نتوقع كذلك أن الوظيفة الدينية سيتم إبتلاعها أيضا داخل هذه الدوامة. الدين بإعتباره الملاحظة الدقيقة التي تأخذ في الإعتبار عوامل معينة غير مرئية وغير قابلة للتحكم فيها هو سلوك عزيزي خاص بالإنسان، ونستطيع رؤية مظاهره ومتابعتها عبر التاريخ البشري كله. هدفه الواضح هو الحفاظ على التوازن النفسي، لأن الشخص الطبيعي يمتلك معرفة طبيعية مساوية عن واقعه، إن وظائفه الشعورية قد تلغى في أية لحظة بسبب أحداث لا يمكن التحكم فيها تأتيه من الخارج أو من الداخل على حد سواء. ولهذا السبب أخذ على عاتقه أن يحتاط عن كل مرة يتخذ فيها قراراً صعباً قد تتبعه عواقب وخيمة سواء عليه أو على الآخرين. إحتياطاً يجعل هذا القرار آمناً عبر أفعال مناسبة ذات طبيعة دينية تقدم الأضاحي للقوى الخفية، وتقرأ أدعية قوية، وتقاوم كل أنواع الشعائر والطقوس اللازمة. في كل مكان وزمان توجد طقوس دخول وطقوس خروج ينكرها العقلانيون غير القادرين على الحدس النفسي ويعتبرونها سحراً وكهانة وخرافات لا طائل من ورائها. بيد أن السحر له قوة نفسية قبل أي شيء ولا يجب أن نقلل من أهميتها. إن القيام بفعل سحري يعطي الأمان للشخص المعني بالأمر وهو شيء أساسي لاتخاذ

القرار، لأن القرار أحادي الجانب حتماً، ومن ثم فهو مخاطرة بكل المقاييس. وحتى الديكتاتور يظن أنه من الضروري أن تواجه التهديدات كل قراراته السيادية، وأيضاً أن يضفي عليها كل أنواع الطقوس. إن الفرق النحاسية، والأعلام، والرايات، والمسيرات والتظاهرات العملاقة، لا تختلف في جوهرها عن المسيرات الدينية، والمعمودية، والألعاب النارية التي تخيف الشياطين. فقط تعطي المسيرة الضخمة التي تعبر عن سطوة الدولة إحساساً جماعياً بالأمان، وهو لا يدفع شياطين الفرد الداخلية على عكس المسيرات الدينية. ومن ثم يزداد تعلقه بسلطة الدولة، أي بتلك الكتلة الجماهيرية ومن ثم يسلم نفسه إليها، ويستسلم لها أخلاقياً ويضع اللمسة الأخيرة في إقصائه الإجتماعي. تطلب الدولة، مثلها مثل الكنيسة، الحماسة والتضحية بالذات، والحب، وإذا كان الدين يتطلب "خشية الرب" فإن ديكتاتورية الدولة تتخذ كل التدابير الكفيلة بتوفير "الرعب الضروري".

عندما يهاجم الشخص المنطقي العقلاني بكل قواه التأثير السحري للطقوس، كما نرى في التقاليد، فقد أخطأ الهدف تماماً. إنه لا يرى النقطة الرئيسية أو التأثير النفسي بالرغم من أن الحزبيين يستخدمونها ولأغراض متناقضة. يسود موقف مماثل بالنظر للمفاهيم المرتبطة بكل منهم فيما يخص الأهداف والغايات. تتحول أهداف الدين، مثل التخلص من الشر والتصالح مع الرب والمكافأة في العالم الآتي.. إلخ، إلى وعود دنيوية عن إنتهاء التفكير في الخبز اليومي والتوزيع العادل للسلع المادية والرخاء العام في المستقبل وتقليص ساعات العمل. ونجد تشابها جديدا بين الإثنين في واقع أن تحقيق هذه الوعود بعيد كل البعد مثل الجنة الموعودة، مما يؤكد حقيقة أن الجماهير تتحول من هدف خارق للعادة إلى إيمان دنيوي خالص يتم تقديسه بنفس الحرارة الدينية وبنفس الإخلاص كما تظهر المعتقدات في إتجاهات أخرى.

ولأجل الا أكرر ذاتي بشكل غير ضروري لن أعدد المشابهات

الموجودة بين الإيمان الدنيوي والإيمان الأخروي، لكنني سأكتفي بالتأكيد على واقعة أنه من المستحيل أن نلغي وظيفة طبيعية وجدت منذ الأزل مثل الوظيفة الدينية عن طريق النقد المنطقي والمُسمى التنوير أحياناً. بوسع المرء أن يُظهر إستحالة محتويات الفكر الموجود في المعتقدات وتسخيفه، بيد أن هذه الطرق تخطئ الهدف ولا تصيب الوظيفة الدينية التي تمثل أساس كل المعتقدات. الدين، بمعنى مصير الفرد و إعتبار العناصر غير المنطقية في النفس شكلاً أخلاقياً، يعاود الدين الظهور بشكل شرير في تأليه الدولة الديكتاتورية يمكن إلغاء الطبيعة بإستخدام شوكة رنانة لكنها ستعاود الظهور مرة أخرى. يحاول القادة والديكتاتوريون بعد أن وزنوا الأمور بثقة أن يخففوا كل التشابه الواضح مع تأليه القيصر ويخنقوا سلطتهم الحقيقية خلف أسطورة الدولة، على الرغم من أن هذا لا يغير في الأمر شيئاً[1].

كما أشرنا من قبل، تقوم الدولة الديكتاتورية بسلب الفرد من كل حقوقه وتسحب البساط من تحت قدميه نفسياً عن طريق حرمانه من الأسس الميتافيزيقية لوجوده. تبقى الحاجة للقرار الأخلاقي للكائن البشري الفرد، كل ما يهم حقاً هو حركة الجماهير العمياء وتصير الكذبة المبدأ الواقعي للفعل السياسي. تتوصل الدولة للإستنتاجات المنطقية من هذه الأشياء ويتحول وجود الملايين من البشر إلى نوع من العبودية التامة للدولة ويفقدون كل حقوقهم تماماً.

ونجد أن الدولة الديكتاتورية والدين المعتقدي يضعان أهمية كبرى على فكرة "الجماعة". ذلك هو النموذج المثالي "للشيوعية" وتلقم في أفواه الناس بكل طريقة لدرجة أنها تعطي تأثيراً عكسياً فتؤدي إلى شك عميق. وتظهر الكنيسة التي يتم التأكيد عليها، أيضاً، بوصفها نموذجاً جماعياً مثالياً، وعندما تكون الكنيسة ضعيفة مثلما الحال في البروتستانتية، يصير الأمل والإيمان بالتجربة الجماعية بديلاً عن الوجود الصلد. وكما يمكننا أن نرى

[1]. كتبت هذا المقال في ربيع سنة ١٩٥٦ وبعدها حدثت أحداث مهمة في الإتحاد السوفيتي للإعتراض على الحالة المرفوضة.

بسهولة الجماعة عوناً لا غنى عنه في تنظيم الجماهير، ومن ثم فهي سلاح ذو حدين، فمثلما يؤدي تجميع الأصفار معاً إلى لا شيء فإن قيمة الجماعة تعتمد على الوضع الروحي والأخلاقي للأفراد الذين يكونونها. ولهذا السبب لا يمكن أن يتوقع المرء من الجماعة أي تأثير قد يفوق في وزنه التأثير المفروض للبيئة أي تغيير حقيقي أصيل في الأفراد، سواء كان جيداً أو سيئاً. فهذه التغييرات تأتي فقط من المقابلة الشخصية بين البشر وبعضهم البعض، وليس عبر التعميق الشيوعي أو المسيحي الجمعي والذي لا يمس الإنسان داخلياً.

يمكننا ببساطة رؤية مدى سطحية الدعاية الجماعية من الأحداث التي حدثت في عام ١٩٥٦ في أوروبا الشرقية حيث أن المثال الجماعي يسقط في غياب عائلة، وهو لا يرى الفرد الإنساني الذي سيؤكد دعواه في النهاية[1].

١. أضيفت العبارة في يناير ١٩٥٧- [بل ويمكننا أيضاً إضافة أن إنهيار المفكر الشيوعي شاهد على هذا (المترجم)].

٣

موقف الغرب فيما يتعلق بمسألة الدين

في مواجهة هذا التطور الحادث في القرن العشرين من ميلاد المسيح يقف العالم الغربي بموروثه من القانون الروماني وكنوز الأخلاق اليهودية/ المسيحية الراسخة في الميتافيزيقا ونموذجه المثالي حول حقوق الإنسان التي لا تتزعزع. نجد أن الغرب يسأل نفسه في حصر متوتر هذا السؤال: كيف يمكن إيقاف هذا التطور أو حتى إرجاعه للخلف؟ من غير المجدي أن نصف الديكتاتوريات الإشتراكية بأنها طوباوية خيالية، أو أن ندين المباديء الإقتصادية لهذه الدول على أنها غير منطقية، لأنه لا يكلم الغرب الناقد نفسه ولا يسمع أحد دعواه إلا في جانبه من الستار الحديدي. وثانياً؛ يمكنك تطبيق أي مباديء إقتصادية طالما كنت على إستعداد لقبول التضحيات التي تتضمنها. يمكنك إجراء أي إصلاحات إجتماعية و إقتصادية تريدها لو كنت مثلك مثل ستالين ٣ ملايين فلاح يموتون جوعاً، وتحت أمرتك عدة ملايين من العاملين بدون أجر. الدولة من هذا النمط لا تخشى من أي أزمات إجتماعية أو إقتصادية، طالما استمرت قوتها متماسكة- أي طالما كان الجيش والشرطة منضبطان وتحت الأمر- تستطيع أن تستمر في الوجود لفترة طويلة وتستطيع أن تستمر في زيادة سلطتها لمدى غير محدد. وبسبب إزدياد معدل المواليد فيها يمكنها دائماً زيادة عدد العمال غير مدفوعي الأجر، وربما كما تشاء، من

أجل المنافسة مع خصومها ومنافسيها، بصرف النظر عن السوق العالمي الذي يعتمد بشكل كبير على الأجور. الخطر الحقيقي يأتي من خارجها عبر التهديد بإستخدام القوة العسكرية، بيد أن هذا الخطر يقل عاماً بعد عام، أولاً لأن الدول الديكتاتورية تزداد قوة في المجال العسكري عاماً بعد عام، وثانياً؛ لأن الغرب لا يستطيع أن يخاطر بإثارة النعرة القومية الشوفينية سواء في روسيا أو أمريكا بهجوم سيحول أغراضهم الحسنة إلى قناة بائسة خاطئة.

ومن ثم تتبقى أمامنا إمكانية واحدة، وهي إنهيار السلطة من الداخل، وهذا يجب أن يحدث وفقاً لتطور داخلي. لن يؤدي إلى تدخل خارجي إلا إلى أثار ضئيلة بالنظر للقياسات الأمنية الموجودة وخطر ردود الفعل القومية. إن الدولة المطلقة تمتلك جيشاً من المبشرين المتعصبين المنتظرين أوامرها فيما يخص أمور السياسة الخارجية، ويعتمد هؤلاء بدورهم على طابور خامس يعيش في طمأنينة في الدول الغربية محتمياً بالقوانين والدستور. أيضاً يضعف المؤمنون الموجودون في مواقع مهمة من قدرة الحكومات الغربية على إتخاذ القرار بينما لا يمتلك الغرب نفس القدرة للتأثير على خصومة، بالرغم من أنه لا يجب أن نستهين بكم المعارضة بين الجماهير في الشرق. فدائماً هناك شخصيات حقيقية ومستقيمة تكره الكذب والطغيان، لكن من الصعب تقدير مدى تأثيرها في الجماهير داخل الأنظمة الديكتاتورية البوليسية[1].

وبالنظر لهذا الموقف غير المريح نسمع السؤال مراراً وتكراراً في الغرب وبإلحاح مستمر: ماذا يجب أن نفعل لمواجهة هذا الخطر الشرقي المحدق؟ بالرغم من إمتلاك الغرب لقاعدة صناعية ضخمة وإمكانيات دفاعية كبيرة، لا يمكننا أن نعيش في راحة ونهجع ونطمئن لأننا نعلم أنه حتى في وجود لقوى المدافع وأثقل الصناعات وأعلى معدلات المعيشة الممكنة لا تكفي لمنع العدوى النفسية الناجمة عن التعصب الديني.

---

١. لقد أظهرت أحداث ١٩٥٦ في بولندا والمجر أن ثمة معارضة قوية أكثر مما كنا نتوقع.

لم يستفق الغرب للأسف من حقيقة أن كل إحتكامنا للمثالية والمنطق وغيرهما من الفضائل المحمودة والتي تقدم بكل حماسة إن هي إلا جعجعة بلا طحن. إنها مجرد نسمة ريح أخذتها عاصفة الإيمان الديني مهما بد أن هذا الإيمان ملتوياً مدمراً. نحن نواجه موقفاً لا يمكن التغلب عليه بالحجج المنطقية أو الدعاوى الأخلاقية، لكن فقط عبر إطلاق قوى شعورية وعاطفية وأفكار تحمل روح العصر، وهذه كما علمتنا الخبرة، لا تتأثر كثيراً بالتأمل المنطقي ولا الوعظ الأخلاقي. لقد أدرك الكثيرون، بكل دقة، أن هذا الإيمان غير العقلاني لا يمكن التغلب عليه إلا عبر قوى مماثلة. الترياق أو العقار الناجع في هذه الحالة يجب أن يكون إيماناً قوياً له طابع مختلف غير مادي، والسلوك الديني المرتكز عليه هو الدفاع الوحيد الفعال ضد خطر العدوى الروحية. للأسف فإن كلمة "يجب" التي لا تفشل قط في الظهور في هذا السياق تشير إلى نقاط ضعف معينة إن لم تكن تظهر غياب هذا الشيء المنشود. لا يفتقد الغرب فقط إلى إيمان موحد بوسعه أن يمنع تقدم الأيديولوجية المتعصبة لكن بوصفه أبا الفلسفة الماركسية فهو يستخدم نفس الفرضيات الروحانية ونفس الحجج ونفس الأهداف. وبالرغم من أن الكنائس في الغرب تتمتع بحرية كاملة وهي ليست أقل إمتلاءاً أو أقل فراغاً من الشرق إلا أنها لا تلعب أي دور مؤثر على سياق السياسة العام. من عيوب المعتقد كمؤسسة أهلية أنه يخدم سيدين: أولا: هو يستقي وجوده من علاقة الإنسان بالرب، وعلى الجانب الآخر فهو مدين بوجوده للدولة، وعليه واجب نحوها، أي للعالم حيث يمكنه هنا أن يرتكز على مقولة المسيح: "أعط ما لقيصر لقيصر..." وغيرها من الأقوال المأثورة من العهد الجديد، ومن ثم وفي العهود الأولى وحتى وقت قريب نسبياً كان ثمة كلام عن "السلطات الممنوحة من الرب" (رومية ١٣: ١)، وقد صار هذا المفهوم آلياً اليوم. حيث تدافع الكنائس عن المباديء والمثل التقليدية والجماعية وهي في حالة الكثير من المؤمنين لا تعتمد على خبرة ولكن على الإيمان الأعمى، وهو أمر قد يختفي بسهولة عندما يبدأ المرء في التفكير فيه.

ومن ثم يتصادم محتوى الإيمان مع المعرفة، وعادة يتضح لا منطقية الأول، لا تستطيع الصمود أمام منطق الأخير. لا يمثل الإيمان بديلاً ملائماً للخبرة الداخلية، وعندما تغيب تلك، فحتى ذلك اليقين الذي يهبط كمعجزة وهدي من السماء قد يذوب بنفس المعجزة. يُسمي الناس اليقين الخبرة الدينية الحقيقية لكنهم لا يتأملون في كونه حقاً مجرد ظاهرة ثانوية، تنبثق من واقعه أن شيئاً قد حدث لنا أو لا فأدمج الكلمة فينا أي الثقة والإقتناع والولاء. تلك التجربة لها محتوى محدد يمكن تفسيره بإستخدام مصطلحات أحد المعتقدات القائمة. لكن كلما حدث هذا كلما إزدادت إمكانيات الصراع مع المعرفة، وهي في ذاتها بلا معنى. أي أن موقف المعتقد عتيق ومملوء بالرمزية الأسطورية المذهلة التي لو أخذناها حرفياً لدخلت في صراع لا هوادة فيه مع المعرفة. لكن على سبيل المثال لو أخذنا عبارة قيامة المسيح من بين الأموات بمعنى رمزي لا حرفي فهي تحتمل العديد من التفسيرات التي لا تتصادم مع المعرفة ولا تخل بمعنى العبارة. والإعتراض القائل بأن فهم العبارة رمزياً ينهي الأمل المسيحي في الخلود هو إعتراض باطل لأن البشرية قد آمنت بالحياة بعد الموت من قبل المسيحية بكثير، ومن ثم لا تحتاج لعيد القيامة لضمان الخلود. إن خطر بعض الفهم الحرفي الصارم للأسطورة كما تدرسها الكنيسة فجأة وبرمته، يمثل أمامنا اليوم وبشدة أكثر من ذي قبل. ألم يحن الوقت بعد لكي نفهم الأسطورة المسيحية رمزياً ولو لمرة؟

من السابق لأوانه أن نقول ما هي نتائج الإدراك العام للتشابه القائل بين دين الدولة عند الماركسيين، ودين الدولة في الكنيسة. ثمة تشابه صارخ بين الإله المتجسد الذي يمثله الإنسان، وبين ألوهية الدولة، والإستنتاج الأخلاقي الذي توصل إليه إغناطيوس لا يولد من سلطة الكنيسة بأن الغاية تضحي بالوسيلة، مما يجعلنا نتنبأ بالكذبة كأداة سياسية وبشكل خطر حقاً. كلاهما يتطلب خضوعاً لا يناقش للعقيدة اليقينية، ومن ثم يلغي حرية الإنسان، أحدهما أمام الله والآخر حريته أمام الدولة، ومن ثم يحفر الفرد قبره. ثمة تهديد من الجانبين لوجود الفرد الهش، حامل الحياة

الفريد، بالرغم من الوعود الصارخة التي يطرحها الجانبين حول الجنات الروحية والمادية الآتية- وإلى متى يستطيع البعض منا محاربة حكمة المثل القائل: "عصفور في اليد، خير من ١٠ على السجرة".

بالإضافة إلى أن الغرب يقدس نفس رؤية العالم المنطقية والعلمية بنزعتها الإختزالية وأهدافها المادية مثل دين الدولة في الكتلة الشرقية كما شرحت من قبل.

إذاً؛ ماذا يستطيع الغرب بإنقساماته السياسية والعقائدية أن يقدم للإنسان الحديث للوفاء بحاجاته؟ لاشيء للأسف عدا عدة طرق متنوعة تقود جميعها إلى هدف واحد لا نستطيع عملياً تمييزه عن النموذج الماركسي المثالي. ولا نحتاج لمجهود كبير لفهم لماذا تعتقد الأيديولوجية الشيوعية أن الزمن في جانبها ولمصلحتها، ومن أين أتي الإعتقاد بأن العالم قد نضج للتحول. تتحدث الوقائع بلغة سهلة واضحة في هذا الصدد، ولن يفيدنا في الغرب أن نغمض أعيننا عن هذا ولا ندرك الخطر القاتل الذي نتعرض له. كل من تعلم مرة واحدة أن يتخلى تماماً عن حقه الأبدي في الحرية وواجبه الأبدي بالمثل في المسئولية الفردية، ويقتنع إقتناعاً جازماً خاضعاً بعقيدة جماعية، سيظل على سلوكه هذا وسيستمر بنفس الحماس وبنفس عدم الإنتقاد في الإتجاه المعاكس لو تبنى عقيدة جماعية أفضل نتيجة فرضها على مثاليته المتوهمة. ماذا حدث منذ وقت ليس ببعيد لأمة-أوروبية متحضرة؟ إننا نتهم الألمان بأنهم قد نسوا كل شيء بالفعل، لكن الحقيقة هي أننا لا نعرف حقاً ما إذا كان شيئاً مماثلاً سيحدث في مكان آخر. ولن يكون هذا مدهشاً لو حدث أن خضعت أمة متحضرة أخرى لعدوى فكرة موحدة أحادية. تبدو أمريكا- ويا لها من مسخ نادر- محصنة بسبب موقفها النقيض الواضح وهي تمثل العمود الفقري السياسي لأوروبا الغربية، لكن في الواقع فهي أكثر عرضة للخطر من أوروبا. إذ أن نسقها التعليمي هو الأكثر تأثراً برؤية العالم العلمية الحافلة بالحقائق الإحصائية، ويجد سكانها المختلطون من الصعب عليهم إيجاد جذور لهم في تربة بلا تاريخ تقريباً. تعيش

التربية التاريخية الإنسانية الضرورية بشدة في هذه الظروف حياة سندريلا الهامشية!! وبالرغم من أن أوروبا تمتلك هذه التربية الأخيرة فهي تستخدمها لتخريب ذاتها في شكل الذاتوية القومية والتشاؤم المميت. وما يجمع الإثنين هو الهدف المادي والجمعي وكلاهما يفتقد للشيء الأساسي الذي يعبر عن الإنسان برمته ويمسكه أي فكرة تضع الإنسان الفرد في المركز بوصفه مقياس كل الأشياء.

تكفي هذه الفكرة بمفردها لإثارة كل أنواع الشكوك العنيفة والمقاومات من كل الجوانب، وبوسع المرء أن يذهب بعيداً ليؤكد أن إنعدام قيمة الفرد بالمقارنة مع الأعداد الكبيرة يكمن في هذا الإيمان الراسخ الذي يجد ترحيباً عاماً وشاملاً. الأكيد؛ ونحن جميعاً نقول أن هذا هو قرن الرجل العادي، إنه سيد الأرض والهواء والماء، وبناء على قراراته يتحدد مصير الأمن التاريخي. للأسف؛ فهذه الصورة الفخمة لعظمة الإنسان ما هي إلا وهم فقط، ويقابلها واقع مختلف تماماً. في هذا الواقع الإنسان عبد وضحية للآلات التي غزت الزمان والمكان لحسابه، وهو خاضع ومهدد من قوة وسطوة آلات وتقنيات الحرب التي يفترض أنها وجدت لحماية وجوده المادي، وتهدد الفوضى الشاملة حريته الأخلاقية والروحية التي تبدو مضمونة مصونة في نصف العالم، وفي النصف الآخر تم إلغاؤها تماماً. أخيراً؛ ولإضافة الملهاة إلى المأساة فإن سيد العناصر والفاعل الكوني هذا يؤمن بمقولات تجعله بلا كرامة وتحول إستقلاله لعبث بل ويحفظها في صدره في قرار مكين. لم تؤد كل إنجازاته وممتلكاته إلى تكبيره، بل على العكس قللت من شأنه كما يظهر بوضوح لنا من خلال مصير عامل المصنع تحت حكم التوزيع العادل للبضائع.

٤

فهم الفرد لنفسه

من المذهل حقاً أن الإنسان المبدع والمخترع والقائم بكل هذه التطورات، وصاحب كل الأحكام والقرارات، ومخطط المستقبل قد جعل من ذاته كماً مهملاً!! في الواقع فإن هذا التناقض والتقييم المختل للإنسانية على يد الإنسان ذاته أمر له العجب. ويمكننا فقط تفسيره على أنه ينبثق من شك خارق للعادة في التقدير والحكم، بمعنى آخر مازال الإنسان لغزاً بالنسبة لنفسه. وهذا أمر مفهوم عندما نرى أنه يفتقد لوسائل المقارنة الضرورية لمعرفة الذات. يعرف الإنسان كيف يميز ذاته عن غيره من الحيوانات في الصفات الفسيولوجية والتشريحية لكن تنقصه كل مقومات الحكم على الذات بوصفه كائناً واعياً متأملاً يمتلك موهبة الكلام. إنه ظاهرة فريدة على هذا الكوكب، ولا يمكن مقارنته مع أي شيء آخر. وستظهر إمكانية المقارنة فقط إن إستطاع أن يقيم علاقات مع ثدييات تشابه البشر تقطن كواكب أخرى، ومن ثم يمكن معرفة ذاته.

وإلى أن يحدث هذا لا بد أن يستمر الإنسان في مشابهة الناسك الذي يدرك أنه بالنظر للتشريح المقارن فهو من أقارب أشباه البشر، لكن الحكم من المظاهر الخارجية يؤدي إلى القول أنه مختلف تماماً عن أولاد عمومته فيما يخص نفسه. ومن ثم لا يعرف الإنسان نفسه ويظل غامضاً بالنسبة لنفسه، فيما يخص

أهم خصائص نوعه. إن أهمية الفروق الكمية داخل النوع ضئيلة بالمقارنة بإمكانية معرفة الذات والتي تحددها مقابلة مع مخلوق له نفس البنية لكن من أصل مختلف. إن نفسنا المسئول الأول عن كل التغيرات التاريخية التي صاغتها يد الإنسان علي وجه البسيطة، ستظل لغزاً لا يحل وأعجوبة لا تفهم، موضوعاً معقداً مذهلاً، وهي خاصية نشترك فيها مع أسرار الطبيعة. ونحن نأمل أن نكتشف المزيد من الإكتشافات التي ستعيننا على فهم الأخيرة، وإيجاد إجابات على معظم الأسئلة العويصة. لكن بالنظر للنفس، وعلم النفس، فثمة تردد فضولي. إنه ليس فقط أصغر العلوم الأمبريقية ولكنه أيضاً مازال يكافح وسط صعوبات شديدة للوصول إلى هدفه.

وبنفس الطريقة التي صحح عبرها كوبرنيق مفهومنا الخاطيء عن الأفكار الأسطورية الخرافية عن المجموعة الشمسية وحررنا من التحيز، كان لابد من بذل أكبر جهد ممكن وبشكل ثوري لتحرير علم النفس أولاً من لعنة الأفكار الأسطورية الخرافية ثم من تحيز أن النفس ما هي إلا ظاهرة مؤقتة تعكس عمليات كيميائية حيوية في المخ أو مادة مستغلقة على الفهم يستحيل الإقتراب منها. إن الإرتباط أو العلاقة بالمخ لا يثبت في ذاته أن النفس ظاهرة فوقية أو وظيفة ثانوية تعتمد إعتماداً شرطياً على عمليات كيميائية حيوية. الأهم من ذلك أننا نعرف جيداً كيف يمكن أن تضطرب الوظيفة النفسية عبر عمليات محددة في المخ، وهذه الواقعة مؤثرة حقاً حتى يبدو أننا لابد وأن نصل لإستنتاج مفاده أن النفس وظيفة ثانوية. بيد أن ظواهر الباراسيكولوجية أو الظاهرات الخارقة للعادة تحذرنا من الإفراط في التعقل، وتطالبنا بالتمهل لأنها تشير إلى عملية تحويل المكان والزمان لحالات نسبية عبر ظواهر وعوامل نفسية، مما يلقي بالشك على تفسيرنا العبيط المتسرع عن التشابه بين المادي والنفسي. ولأجل خاطر هذا التفسير ينكر الناس الظواهر الخارقة للعادة إنكاراً مباشراً، سواء كان ذلك إلتزاماً بموقف فلسفي أو لكسل ذهني. ولا يمكننا إعتبار هذا سلوكاً علمياً مسئولاً بالرغم من أنها الطريقة الشائعة

للخروج من معضلة ذهنية خارقة حقاً. لتقييم الظاهرة النفسية علينا أن نضع في إعتبارنا كل الظواهر الأخرى التي تأتي معها ومن ثم لا يمكننا ممارسة أي علم نفس يتجاهل وجود اللاشعور أو ينفي الظواهر الباراسيكولوجية. لا تقدم بنية المخ ولا فسيولوجيته أي تفسير للعملية النفسية. النفس لها طبيعة خاصة لا يمكن إختزالها لأي شيء آخر. ومثلها مثل الفسيولوجية فهي تمثل مجالاً محدداً بذاته من مجالات الخبرة، وعلينا أن نصفي عليه أهمية خاصة، لأنه يحمل بداخله أحد الطرفين اللازمين للوجود، ألا وهو ظاهرة الشعور والوعي تحديداً. بدون الشعور لن يوجد عالم بشكل عملي. فالعالم يتواجد كما هو فقط عبر إنعكاسه الشعوري والتعبير عنه شعورياً من قبل النفس. الشعور شرط قبلي للوجود والكينونة، ومن ثم تحمل النفس كرامة المبدأ الكوني وهو ما يعطيها فلسفياً وفي الواقع موقعاً يعادل مبدأ الكينونة المادية. الفرد هو حامل هذا الشعور وهو لا ينتج النفس بإرادته لكن على العكس من ذلك يتشكل عبرها ويتغذى عبر الإستيقاظ التدريجي للوعي أثناء الطفولة. لو أعطينا النفس أهمية أمبريقية عظمى فعلينا أن نمنح الفرد مثلها لأنه المظهر الوحيد المباشر للنفس.

لابد من التعبير عن هذه الحقيقة بوضوح لسببين. **أولاً**: نفس الفرد بسبب فردانيتها هي إستثناء من كل القواعد الإحصائية ومن ثم تسلب منها أحد أهم خصائصها عندما تتعرض للتأثير الإختزالي للتسوية الإحصائية التقييمية. **ثانياً**: تمنح الكنائس مصداقية للنفس طالما إترفت الأخيرة بالدوجما الكنسية وقبلتها- بمعنى آخر عندما تستسلم لفئة تجميعية. وفي كلتا الحالتين تعتبر إرادة الفردانية تصلباً أنانياً. يتجاهلها العلم على أنها ذاتية وتدينها الكنائس من وجهة النظر الأخلاقية بوصفها هرطقة وإنتفاخاً روحانياً. بالنسبة للإتهام الأخير علينا ألا ننسى أن المسيحية تحمل في جوهرها رمزا محتواه الأساسي هو طريقة حياة إنسان، إنه إبن الإنسان، وهي ترى هذه الفردانية كتجسيد وكشف للرب ذاته. من ثم يكتسب تطور الذات معنى لم يتم بعد تقدير مغزاه الكامل لأن الإهتمام الممنوح للأشياء

الخارجية يغلق الطريق أمام الخبرة الداخلية المباشرة. أليس إستقلال الفرد هو الطموح السري للعديد من البشر، من العسير أن تظل هذه الظاهرة المضغوطة باقية على قيد الحياة في مواجهة الكبت الجماعي، سواء على المستوى الأخلاقي أو الروحي.

تجعل كل هذه العقبات من العسير الوصول إلى تقدير صحيح للنفس البشرية، لكنهم لا يمثلون شيئاً كبيراً بالمقارنة بحقيقة ملحوظة تستحق الذكر. وهي الخبرة النفسية التي تقول أن التقليل من شأن النفس وكل المقاومات الأخرى للتنوير النفسي ينبني في الأساس على الخوف والرعب، الخوف من الإكتشافات التي يمكن الوصول إليها في مجال اللاشعور. نجد هذه المخاوف ليس فقط بين الأشخاص الذين ترعبهم الصورة التي رسمها فرويد للا شعور لكنها أزعجت أيضاً مؤسس التحليل النفسي ذاته الذي إعترف لي أنه من الضروري صناعة دوجما من نظرية الجنسية لأن هذا كان الدفاع المنطقي الوحيد ضد إحتمال إنفجار فيضان أسود من العلوم الباطنية. بهذه الكلمات كان فرويد يعبر عن إعتقاده الراسخ بأن اللا شعور ما يزال يحمل الكثير من الأشياء التي قد تستدعي تفسيرات باطنية سرية وهو الأمر الواقع حقا. إن هذه الأمثولات العتيقة أو الأشكال الأولية الراسخة في الغرائز والتي تعطي تعبيرات لها هي ذات طبيعة محيرة لدرجة أنها تسبب الخوف أحياناً. لا يمكن إزالتها لأنها تمثل الأسس الأخيرة للنفس ذاتها. لا يمكن إدراكها ذهنياً وعندما يدمر المرء أحد مظاهرها تعاود الظهور بشكل مختلف. إن هذا الخوف من النفس اللا شعورية هو ما يعيق معرفة الذات، وهو كذلك أكبر عقبة في سبيل فهم أوسع ومعرفة أعمق في علم النفس. وعادة يكون هذا الخوف شديداً حتى أن المرء لا يجرؤ على الإعتراف به لذاته. وهاكم سؤالاً لابد وأن ينظر فيه بتمعُن، كل شخص متدين قد يصل إلى إجابة تنويرية له.

لابد أن يتحرك علم النفس الملتزم بفكرة العلم قدماً إلى الأمام على طريق التجريد أي أن يبعد نفسه عن موضوع بحيث لا يفقد

رؤيته. لذا؛ فإن إكتشافات علم النفس المعملي، ولأغراض عملية، عادة ما تكون غير تنويرية وتخلو من الإثارة. كلما ساء الفرد الموضوع مجال الرؤية كلما إزدادت حيوية وعملية وتفصيلية المعرفة المستمدة منه. وهذا يعني أن أغراض البحث أيضاً لابد وأن تصير أكثر تعقيداً، وتزداد عدم دقة ولا حتمية العوامل الفردية بشكل طردي مع إزدياد عددهم، ومن ثم تزداد إمكانية الخطأ. وبالطبع لابد وأن يخشى علم النفس الأكاديمي من هذه المخاطرة ويفضل تجنب التعقيد المركب. له مطلق الحرية في طرح ما يشاء من أسئلة على الطبيعة.

يُبعد علم النفس الطبي كثيراً عن هذا الموقف الذي لا يُحسد عليه علم النفس الأكاديمي. هنا يطرح الموضوع السؤال وليس المجرب. يواجه الطبيب وقائع ليست من إختياره ولم يكن ليختارها في الأغلب لو كانت لديه الحرية. المرض أو المريض هما من يطرح الأسئلة الحاسمة، بمعنى آخر تجرب الطبيعة الطبيب حين تتوقع منه إجابة. تتطلع قراءة الفرد في تفحص لوجه الطبيب وتطلب إجابة، ويجبره واجبه كطبيب على أن يتماشى مع الموقف المليء بالعناصر غير المحددة. ولا يستخدم مباديء تعتمد على الخبرة العامة لكنه سرعان ما سيدرك أن مثل هذه المباديء لا تعبر كفاية عن الوقائع وتفشل في مواجهة طبيعة الحالة. ومع نمو ما يحس به كل من الطبيب والمريض معاً، إنه الفهم الذي يزيد الموقف "ذاتية". ويصير كل ما كان ميزة في البداية تهديداً خطراً يهدد بالتحول إلى عيب مدمر. تخلق عملية التحول الذاتية (أو بإستخدام مصطلحات تقنية الطرح وتضاد الطرح) عزلة عن البيئة المحيطة وحداً إجتماعياً لا يريده أي من الطرفين لكنه يحدث لا محالة عندما يسود الفهم ولا توازيه المعرفة، وكلما تعمق الفهم كلما إبتعد عن المعرفة. ويؤدي الفهم المثالي إلى دخول كل طرف في تجربة الآخر بلا تفكير لفصل لحالة من السلبية غير الإنتقادية ترتبط معها ذاتية تامة كاملة وإنعدام تام للمسئولية الاجتماعية. على أية حال، فالفهم يستحيل أن يصل لهذه

الدرجة لأنه يتطلب التعيين الخالص لفردين مختلفين. وعاجلاً أو آجلاً تصل العلاقة إلى نقطة حيث يحس طرف بأنه مجبر على التضحية بفردانيته حتى يستطيع الآخر تمثلها. وتؤدي هذه النتيجة الحتمية إلى تحطيم الفهم، لأن الفهم يفترض مسبقاً الحفاظ التكاملي على فردانية الطرفين. ومن ثم فمن الأفضل الوصول بالفهم فقط إلى نقطة التوازن بين الفهم والمعرفة، حيث أن الفهم بأي ثمن مضر للطرفين.

وتزداد هذه المشكلة كلما كنا مجبرين على فهم ومعرفة مواقف فردية مركبة. إن مهمة علم النفس الأساسية هي توفير هذه المعرفة والفهم. وسيتكون من هذا مهمة متقبل الإعتراف المتحمس لشفاء الأرواح ما لم يجبره منصبه على إستخدام مسطرة تحيزاته المعتقدية في اللحظة الحاسمة. وكنتيجة لهذا يقطع حق الفرد في الوجود بسكين التحيز الجماعي وعادة ما يحدث هذا في أدق المناطق وأكثرها حساسية. واللحظة الوحيدة التي لا يحدث فيها هذا هي عندما يفهم رمز ديني بعمق ويحس الفرد أنه كاف، مثلاً نموذج حياة المسيح. ما مدى هذا في هذه الأيام، أفضل ألا أجيب على هذا السؤال. على كل الأحوال، كثيراً ما يعالج الطبيب مرضى لا تمثل الحدود الكنسية المعتقدية أية شيء بالنسبة لهم، ومن ثم تجبره مهنته على التقليل من المفاهيم المسبقة بقدر الإمكان. بالمثل فبينما يحترم الإعتقادات الميتافيزيقية (أي غير الممكن إثباتها) فعليه أن يحرص على ألا يحملها بقيمة كونية. وهذا التحذير مهم لأن خصائص الشخصية الفردية لا يجب أن تلوي بإستخدام تدخلات إعتباطية من الخارج. لابد أن يترك الطبيب هذا لتأثيرات بيئته ولنمو الشخص الداخلي، وبالمعنى العام للقدر بما عليه من قرارات صائبة أو خائبة.

قد يرى الكثير من الناس أن هذا التحذير المؤكد مبالغ فيه بعض الشيء. لكن بالنظر لواقعة أن ثمة العديد من التأثيرات المتبادلة تعمل في العملية الجدلية بين فردين حتى لو أجرينا هذه العملية بكل

حرص ومن ثم سيمتنع الطبيب المسئول عن إضافة شيء ما إلى العوامل المجتمعية التي خضع لها المريض بالفعل. أكثر من ذلك فهو يعرف جيداً أن الوعظ يؤدي فقط إلى إثارة المريض وتحويله للعداء الصريح أو المقاومة السرية حتى لو كان محتواه أفضل ما يمكن، وهذا يهدد بلا داع هدف العلاج. لقد تأثر الموقف النفسي للفرد تأثراً سلبياً في أيامنا هذه من الإعلان والدعاية وغيرهما من الإقتراحات والنصائح، سواء الغالية منها أو الرخيصة، بحيث يحتاج المريض إلى أن نقدم له ولو مرة واحدة في حياته علاقة لا تكرر عبارات "يجب" و"لابد" و"عليك أن"، وغيرها من العبارات المثيرة للغثيان والمعبرة عن العقم.

يرى الطبيب نفسه مضطراً لأن يلعب دور مستشار الدفاع ضد الهجوم وكذا ضد صداه في نفس الفرد. إن الخوف من إنفلات غرائز فوضوية من عقالها هو إمكانية تتم المبالغة في تقديرها بالنظر إلى صمامات الأمان الواضحة، سواء من الخارج أو من الداخل، قبل كل شيء هناك خجل معظم الناس، وهو أمر لابد أن يحسب حسابه ولا ننسى الأخلاق والذوق الرفيع، وأخيراً وليس آخراً قانون العقوبات. هذا الخوف هو لا شيء بالمقارنة بالجهد الضخم المبذول من قبل الناس لتحريك الفردية للدخول إلى بدايات الوعي والشعور، ناهيك عن مايتطلبه وضعها في حالة مؤثرة. وحينما تخرج هذه الدوافع الفردية للنور بلا روية ولا تفكير لابد أن يقيها الطبيب من خرق المريض ولجوئه لقصر النظر والعنف والسخرية.

ومع تقدم المناقشة الجدلية نصل لنقطة بحيث يصير من الضروري تقويم هذه الدوافع الفردية. عند هذا الوقت لابد أن يكون المريض قد إكتسب ما يكفي من رجاحة الحكم لنساعده على التحرك وفقاً لحدسه الشخصي وقراره، وليس مجرد الرغبة في نسخ المعتاد والشائع وإتباعهما- حتى لو كان يتفق مع الرأي الجمعي. ما لم يقف المريض في صلابة على قدميه فلن تفيده تلك القيم التي ندعوها موضوعية، لأنها لا تعمل عندئذ كبديل للشخصية ومن ثم تساعد

في كبت فردانيته. بالطبع من حق المجتمع الذي لا مراء فيه أن يحمي ذاته من الذاتية المغرضة المفرطة، لكن حيث أن المجتمع ذاته مؤلف من أشخاص فاقدين لفردانيتهم فهو تحت رحمة أفراد لا يرحمون إطلاقاً. دع الأفراد يتجمعون معاً في جماعات ومنظمات كما يشاؤون، فهذا التجمع وما ينجم عنه من إلغاء الشخصية الفردية هو ما يجعل الفرد يخضع بسهولة للديكتاتور. فللأسف الشديد لا يصل مجموع مليون (صفر) معاً إلى (١). في النهاية يعتمد كل شيء على كيف الفرد وجوهره، لكن العادة العاملة قصيرة النظر في عصرنا هذا هي أن نفكر فقط في الأعداد الكبيرة والمنظمات الجماهيرية بالرغم من أنه من حق المرء أن يفكر أن العالم قد أخذ كفايته من هذه الأشياء أو مما يفعله جمع منظم من الغوغاء تحت إمرة فرد مجنون وحيد. وللأسف لا يبدو أن هذا الإدراك قد ترسخ وعمانا في هذا الصدد جد خطير. فالناس تأخذ في التنظيم بلا هوادة ويؤمنون بالعقار الأمثل وهو الفعل الجماهيري، بدون أدنى وعي بواقعة أن أقوى المنظمات يمكن أن تستمر فقط بسبب إنعدام الرحمة تماماً عند القادة وعبر أرخص الشعارات.

المدهش حقاً أن الكنائس أيضاً تريد أن تلتزم بالحركة الجماهيرية كوسيلة لطرد الشيطان بإستخدام إبليس- تلك الكنائس التي تهتم فقط بتخليص الروح الفردية. يبدو أنهم لم يسمعوا أيضاً عن المبدأ الأساسي في علم نفس الجماهير وهو أن الفرد يصير أقل أخلاقياً و روحياً في الجمهور، ولذا فهم لا يشغلون أنفسهم كثيراً بمهمتهم الحقيقية ألا وهي مساعدة الفرد على تحقيق الميتانويا أو إعادة ميلاد الروح. وللأسف فالأمر جد واضح أنه إن لم يُعد حقاً ميلاد روح الفرد لا يمكن تغيير المجتمع فعلاً لأن المجتمع هو المجموع النهائي للأفراد الذين يحتاجون للخلاص. أستطيع إذن أن أرى الوهم الذي يحدث من الكنائس حين تحاول تجميع الأفراد وربطهم بحبلٍ في منظمة إجتماعية واختزال الفرد لحالة تقلص المسئولية بدلاً من رفعه من صفوف الجماهير غير العاملة وإفهامه بوضوح أنه أهم

العناصر في الخلاص، لأن خلاص العالم يعتمد على خلاص الروح البشرية الفردية. حقيقي أن القداس يستعرض هذه الأفكار أمام الشخص ويحاول أن يطبعها في عقله عبر الإيحاء الجماعي لكن النتيجة النهائية أنه مع ضياع تأثير المخدر الروحي يخضع رجل الجماهير لشعار آخر أكثر وضوحاً وربما أعلى صوتاً. وستكون علاقته الفردية مع الرب درعاً واقياً ضد هذه التأثيرات الخبيثة.

هل دعا المسيح تلاميذه/ حوارييه أبداً للقاء جماهيري؟ هل أدى إطعامه للخمسة آلاف فرد إلى أن يكسب أتباعاً لم يصرخوا بعدئذ قائلين: "اصلبوه!" مع الأخرين، عندما أظهر الصخرة المسماة بطرس أعراض التقلقل والإستسلام؟ وأليس المسيح وبولس الرسول نماذج أولية لمن وثق في خبرته الذاتية ومشى في طريقه الفردي لا يبالي بالرأي العام ولا يأبه لشيء؟

لا يجب أن تؤدي هذه الحجج بالتأكيد إلى التغاضي عن الواقع الآتي الذي يواجه الكنيسة. عندما تحاول الكنيسة أن تعطي شكلاً للجماهير المهولة عن طريق توحيد الأفراد في شكل جماعة المؤمنين بإستخدام الإيحاء وتحاول الإبقاء على هذه المنظمة متماسكة، إنها لا تؤدي فقط خدمة إجتماعية عظيمة لكنها تضمن للفرد أيضاً هبة لا تقدر بثمن، هي شكل الحياة ذات المعنى. تلك هبات تؤكد بشكل عام نزعات معينة ولا تغيرها. كما تظهر الخبرة للأسف لا يتغير الفرد الداخلي مهما تغيرت جماعته. لا يمكن أن يعطيه المناخ المحيط به هبة يمكنه فقط أن يكسبها لنفسه بجهد ومعاناة. على العكس فإن المناخ الملائم يدعم فقط النزعة الخطرة في توقع مجيء كل شيء من الخارج- حتى هذا التحول الكبير الذي لا يمكن أن يقدمه الواقع الخارجي وهو تحديداً تغير عميق في الإنسان الداخلي وهو أمر ملح بالنظر للظواهر لجماهيرية الحادثة اليوم والمشاكل الأكبر التي ستنتجم عن تضخم عدد السكان القادم في المستقبل. لقد حان الوقت كي نسأل أنفسنا بالضبط ماذا نجمع في المنظمات الجماهيرية، وماذا يشكل طبيعة الكائن البشري الفرد

أي الإنسان الحقيقي وليس الإنسان الإحصائي. وهذا صعب إن لم يكن مستحيلاً عدا عبر عملية جديدة من تغذية الذات.

وكما يجب أن نتوقع فكل الحركات الجماهيرية تنحدر إلى مستوى نازل وبسهولة مطلقة ويتمثل هذا في الأعداد الضخمة. وحيثما كان العدد كبير فثمة أمن وما آمن به العديد لابد بالطبع أن يكون حقيقياً، وكل ما يطمح له الكثرة لابد وأن يكون قيماً يستحق وضرورياً ومن ثم طيباً. في خضم بحر المجموع المتلاطم سنجد سلطة إختطاف وتحقيق الأهواء والأماني بالقوة، وأحلى شيء أننا نعود في رقة وبدون ألم إلى مملكة الطفولة وإلى جنة الحنان الأبوي ورعاية الدين وخلو البال واللا مسئولية. وكل التفكير والرعاية تتم من أعلى، وثمة إجابة على كل الأسئلة، ونجد وفاء بكل الحاجات. إن دولة الحلم الطفلي لرجل الجماهير دولة غير واقعية حتى أنه لا يتوقف قط ليسأل من يدفع ثمن هذه الجنة. يترك إمساك الدفاتر والحسابات للسلطة السياسية أو الإجتماعية الأعلى والتي ترحب بالمهمة لأن هذا يزيد من سطوتها، وكلما إزدادت سلطتها كلما إزداد إحساس الفرد بالعجز.

وكلما تطورت ظروف إجتماعية من هذا النمط على مقاس كبير ينفتح الطريق للطغيان على مصراعيه وتتحول حرية الفرد إلى عبودية روحية و مادية. وحيث أن كل طغيان لا أخلاقي وبلا رحمة نجد أن له حرية أكبر في إختيار مناهجه من أي مؤسسة تضع في حسبانها الفرد. ولو تعارضت هذه المؤسسة مع الدولة المنظمة ستفهم سريعاً عيب هذه الأخلاقية ومن ثم تجبر على إستخدام نفس مناهج خصمها. وبهذه الطريقة ينتشر الشر كما لو كان الأمر بفعل الضرورة حتى لو كان بالوسع تجنب العدوى المباشرة. تزداد خطورة الإصابة بالعدوى كلما أعطينا أهمية كبرى حاسمة للأعداد الضخمة والقيم الإحصائية، كما هي الحال في عالمنا الغربي. تمر سلطة الجماهير الخانقة متبخترة أمام أعيننا بشكل أو بآخر كل يوم في الصحف، ويحس الفرد بإنعدام قيمته وضآلته وبشدة حتى

أنه يفقد كل أمل في أن يجعل الناس تستمع له. ولا تساعده على الإطلاق الشعارات المثالية البالية: حرية، إخاء، مساواة، حيث أنه يرفع إستعطافه لجلاديه المتحدثين باسم الجماهير.

يمكننا فقط مقاومة الجماهير المنظمة عن طريق الإنسان الذي نظم فردانيته مثلما تنظم الجماهير. وأنا أدرك تماماً أن هذا الإقتراح لابد وأن يبدو شديد السذاجة لإنسان اليوم المعاصر. لقد تخلى منذ زمن بعيد عن الرؤية القروسطية الداعمة التي تقول أن الإنسان هو كون أصغر تنعكس فيه كل الأكوان الكبرى بشكل مصغر، بالرغم من أن وجود نفسه التي تضم العالم وتشترط بالعالم كان لابد أن يعلمه شيئاً أفضل. لا تنطبع عليه صورة الكون الكبير ككائن نفسي لكنه يخلق أيضاً هذه الصورة لنفسه على نطاق دائم الإتساع. إنه يحمل هذا التواصل الكوني بداخله بسبب شعوره التأملي من جانب ومن جانب آخر بفضل الطابع الوراثي البدائي الرمزي لغرائزه التي تربطه بواقعه المحيط. بيد أن غرائزه لا تربطه فقط بالكون الكبير فهي بمعنى ما تمزقه تمزيقاً لأن أهواءه تشده في إتجاهات متضاربة. وبهذه الطريقة يسقط في صراع دائم مع ذاته وفي لحظات نادرة ينجح في إعطاء حياته هدفاً غير مقسم ومن أجل ذلك كتب عليه أن يدفع الثمن غالياً، عن طريق كبت جوانب أخرى في طبيعته.

وعادة ما يسأل المرء نفسه في هذه الحالات هل تستحق هذه الأحادية إجبارها للمرء بالتفكر حيث أن الحالة الطبيعية للنفس البشرية هي تجميع مكوناتها معاً بالرغم من تناقض سلوكياتهم أي ضرورة وجود درجة من التفكك تسميها البوذية الإرتباط بـ"عشرة آلاف شيء" وتصرخ هذه الحالة مطالبة بالتجميع والنظام.

وكما تجبر الحركات الفوضوية الجماهيرية، التي تنتهي إلى إحباط جماعي، على الإتجاه في وجهة محددة عبر إرادة ديكتاتورية، يحتاج الفرد في حالة التبعثر تلك إلى مبدأ هادئ ومنظم. يود

شعور الأنا ووعيها أن يدع إرادته تلعب هذا الدور لكنه يتغاضى أو يتناسى وجود قوى لا شعورية شديدة ترفض ما ينتويه. لو أرادت الوصول لهدف التجميع لابد لها أولاً أن تصل لتعرف طبيعة هذه العوامل. لابد أن تخبرها أو على الأقل لابد أن تمتلك رمزاً واضحاً يعبر عنها ويؤدي للتجميع الرمزي الديني الذي يفهم ويمثل تمثيلاً مرنياً ما يبحث عنه الإنسان المعاصر هذا الدور، لكن مفروضاً عن الرمز المسيحي اليوم والبابوي لا يستطيع بالتأكيد أن يفعل هذا. على العكس إن إنقسام العالم المرعب يجري مباشرة عبر نطاق الإنسان الأبيض المسيحي وثبت أن رؤيتنا المسيحية للحياة بلا حيلة تمنع ظهور نظام إجتماعي عتيق مثل الشيوعية.

هذا لا يعني أن المسيحية قد إنتهت. فأنا مقتنع بالعكس أن المسيحية ما تزال يانعة وأن ما شاخ ونضب هو مفهومنا عنها وتفسيرنا لها في مواجهة الوضع العالمي الحالي. الرمز المسيحي هو شيء حي يحمل في ذاته بذور تطوره القادم. يمكنه أن يستمر في التطور وهو يعتمد فقط علينا وعلى ما إذا كان باستطاعتنا حسم أمرنا لنستطيع الصلاة والتعبد مرة أخرى وبشكل أكثر دقة على الأرض المسيحية[1]. وهذا يتطلب سلوكاً مغايراً تماماً نحو الأفراد، أي نحو الكون الأصغر للذات، سلوكاً يختلف تماماً عن السلوك الذي سلكناه حتى الآن. ولذا لا يعرف أحد لما أو ما هي طرق المقاربة المفتوحة أمام الإنسان، وما هي الخبرات الداخلية التي يمكنه المرور عبرها حتى الآن، وما هي الوقائع والحقائق النفسية التي تبطن الأسطورة الدينية. وفق هذا نجد ظلاماً دامساً عاماً لا يستطيع المرء فيه أن يرى أي شيء ولا يعرف لماذا يجب عليه أن يهتم أو بماذا يلتزم؟ ونقف بلا حيلة أمام هذه المشكلة.

وليس هذا بالعجيب حيث أن خصومنا يحملون في الواقع كل

1. يتكلم يونج هنا من منطلق الإنسان الأوروبي المسيحي (كان والده قساً) المتدين ويدعو لتجديد الدين. لكننا نرى نزعة في كلامه أهم وأعم، وهي تجديد الدين والروحانية عند الإنسان في كل أنحاء الأرض وهو ما يحدث اليوم [المترجم]

أوراق اللعبة القوية. يمكنهم اللجوء للكتائب الضخمة وقوتها المدمرة. وتقف السياسة والعلم والتكنولوجيا في صفهم أيضاً. إن الحجج المفروضة عن العلم تمثل أعلى درجة من درجات اليقين الذهني حققها عقل الإنسان حتى الآن. أو هكذا يبدو الإنسان اليوم الذي تلقى مئات الأضعاف من جرعات التنوير فيما يخص تخلف وظلامية العصور السابقة وخرافاتها. ولا يجول بخلده على الإطلاق أن معلمين قد أخطأوا وضلوا وإفترضوا إفتراضات كاذبة وقارنوا مقارنات مزيفة بين عوامل لا تقاس بعضها بالبعض. وتزداد القناعة عندما يجد أن النخبة المثقفة التي يطرح عليها أسئلته تتفق بالإجماع على ما يعتبره العلم اليوم مستحيلاً، كان مستحيلاً وسيظل مستحيلاً دائماً. والأهم من كل هذا فإن وقائع الإيمان والتي كان يمكنها تزويد هذا الإنسان بنقطة إرتكاز خارقة للعادة تعامل كما لو كانت وقائع علمية!! ومن ثم فعندما يتساءل الفرد عن الكنائس ويسأل متحدثيها عمن أنيط به علاج الروح يخبرونه أن عضوية المعتقد، وهو مؤسسة دنيوية بلا جدال- هي نفسها المعادل الموضوعي للإيمان الديني وأن الوقائع الإيمانية التي صارت مشكوكاً فيها هي وقائع تاريخية ثابتة، وأن بعض الطقوس تؤدي إلى معجزات مذهلة، وأن آلام المسيح أنقذت من الخطية وكل تبعاتها (أي اللعنة الأبدية) ولو بدأ في تأمل هذه الأشياء بإستخدام الوسائل المحددة المتاحة له لكان عليه أن يعترف بأنه لا يفهم على الإطلاق، وأن أمامه فقط إحتمال من إثنين إما الإيمان الجاهل أو رفض هذه العبارات لأنها غير مفهومة تماماً.

بينما يستطيع إنسان اليوم التفكير في كل "الحقائق" التي تصبها الدولة على رأسه وفهمها فهمه للدين يصير أكثر صعوبة بسبب نقص التفسيرات "٣٠فَبَادَرَ إِلَيْهِ فِيلُبُّسُ وَسَمِعَهُ يَقْرَأُ النَّبِيَّ إِشَعْيَاءَ فَسَأَلَهُ: «أَلَعَلَّكَ تَفْهَمُ مَا أَنْتَ تَقْرَأُ؟» ٣١فَأَجَابَ: «كَيْفَ يُمْكِنُنِي إِنْ لَمْ يُرْشِدْنِي أَحَدٌ؟»." (أعمال الرسل ٨: ٣٠- ٣١) فلو لم يتخل عن كل معتقداته الدينية بسبب هذا، فهذا لأن الإيمان الديني يرتكز

على قاعدة غرائزية ومن ثم فهو وظيفة بشرية محددة. يمكنك أخذ آلهة الإنسان لكن فقط لو أعطيته بديلاً عنهم. لا يمكن أن يتجنب قادة الدولة الجماهيرية عملية تأليههم وما لم تحدث هذه العملية الفجة بالقوة تنبثق قوى وسوسية مكانها محملة بطاقة شيطانية مثل المال و العمل والتأثير السياسي وغير ذلك. عندما تضيع الوظيفة الإنسانية أي لا يتاح لها الظهور الشعوري والتعبير الواعي يحدث إضطراباً عاماً.

ومن ثم فمن الطبيعي حقاً أنه مع إنتصار رآية العقل لابد وأن تحدث عقلنة عامة للإنسان الحديث وهي تفكك للشخصية يشابه هذا الإنقسام الذي نشهده اليوم في العالم نتيجة للستار الحديدي. يجري هذا الخط الحدودي المليء بالأسلاك الشائكة على طول النفس البشرية المعاصرة بصرف النظر عن الجانب الذي يحيا فيه. ومثلما لا يدرك العصابي النمطي جانب الظل عنده فكذا الفرد السوي مثله مثل العصابي يرى ظله في جاره أو في الإنسان خلف الإنقسام العظيم. لقد أصبح الآن ضمن الواجبات السياسية والإجتماعية أي أن تسبُ الرأسمالية والشيوعية وتلعن بوصفها الشيطان الأعظم بحيث تبهر العين الناظرة للخارج وتمنعها من رؤية حياة الإنسان الداخلية. لكن مثلما يحس العصابي بأن ثمة خطأ ما في إقتصاديات نفسه ولو إحساس ضئيل بالرغم من عدم شعوره بظله، يحس الإنسان الغربي بإهتمام غريزي في نفسه وبعلم النفس.

ومن ثم يستدعي الطبيب على عجل ليظهر على مسرح العالم وتوجه له الأسئلة، وتتعلق تلك أساساً بأكثر دقائق الحياة خصوصية في حياة الفرد، ولكنها في التحليل النهائي الآثار المباشرة لعفريت العصر. ونظراً لأعراضها الشخصية عادة ما تعتبر تلك المادة عصابية، وهذا صحيح، لأنها تتكون من تخيلات طفلية لا تتجاوب مع محتويات النفس البالغة، ومن ثم يكبتها تقديرنا الأخلاقي هذا لو وصلت للشعور من أصله. ومعظم التخيلات من هذا النوع لا تأتي للشعور في شكل طفلي وهذا عائد لطبيعة الأشياء ذاتها،

ومن غير المحتمل على الإطلاق أنها كانت شعورية ثم كبتت كبتاً شعورياً واعياً. إنها بالأحرى كانت موجودة منذ القدم أو إنبثقت لا شعورياً وإستمرت في هذه الحالة حتى مكنها تدخل عالم النفس من عبور عتبة الشعور. إن تنشيط التخيلات اللا شعورية عملية تحدث عندما يجد الشعور نفسه في موقف حرج. لو لم يكن الأمر كذلك فإن التخيلات كانت ستظهر بشكل عادي ثم يتلوها الإضطرابات العصابية. في الواقع تنتمي التخيلات من هذا النوع إلى عالم الطفولة وتسبب إضطرابات فقط عندما تدعمها ظروف غير عادية في الحياة الشعورية. ومن الممكن حدوث هذا عند ظهور تأثيرات غير محبذة من الآباء تسمم الجو وتنتج صراعات تفسد الإتزان النفسي للطفل.

عندما يحدث العصاب عند البالغ يعاود عالم الطفولة الخيالي الظهور ويجد المرء نفسه تحت أية تفسير العصاب تفسيراً علمياً على أنه بسبب وجود تخيلات طفلية. لكن هذا لا يفسر لنا لماذا لم تتحول التخيلات إلى آثار مرضية أثناء الفترة الانتقالية. تحدث هذه الآثار المرضية فقط عندما يجد الفرد نفسه في مواجهة موقف لا يستطيع التغلب عليه بوسائل شعورية. ويفتح الجمود، الناتج عن هذا، في تطور الشخصية ثغرة تنفذ منها التخيلات الطفلية وهي كامنة بالطبع في كل فرد لكنها لا تلعب أي دور فعال طالما استطاعت الشخصية الشعورية أن تستمر في طريقها دون إعاقة. وعندما تصل التخيلات إلى مستوى معين من القوى تبدأ في اختراق الشعور وتخلق موقف صراع يدركه المريض ذاته مما يشطره إلى شخصين كل منهما له خصاله المميزة المختلفة. بيد أن التفكك قد حدث وأعد منذ أمد بعيد في اللاشعور عندما أتت الطاقة التي لم تستخدم من الشعور إلى اللاشعور ودعمت الخصال السلبية للشخصية اللاشعورية وخاصة صفاتها الطفلية.

وحيث أن التخيلات الطفلية العادية ما هي إلا الخيال المتولد من الدوافع الغريزية ومن ثم يمكننا النظر إليها على أنها تمرينات أولية

في استخدام الفعاليات الشعورية المستقبلية، يتبع ذلك أن تخيلات العصابي بالرغم من كونها قد تحولت إلى أشكال مرضية شاذة بفعل نكوص الطاقة، وتحتوي على لب من الغريزة السوية وعلاقة هذا التكيف. دائماً يتضمن المرض العصابي تغييراً وتشويهاً لا يتكيف مع الديناميات السوية والخيال الصحيح المقابل لهم. بيد أن الغرائز جد محافظة وذات طبيعة عتيقة جداً سواء في ديناميتها أو شكلها. يظهر شكلها عند تمثله في الذهن كصورة تعبر عن طبيعة الدافع الغريزي تعبيراً بصرياً مجرداً واضحاً وكأنه صورة. لو أمكننا النظر في نفس الفراشة اليومي[1] مثلاً سنجد فيها نمطاً من الأفكار مذهلاً لا يجبر الفراشة فقط على إتمام دورها في تلقيح نبات اليوكا لكن يساعدها كذلك على إدراك الموقف الإجمالي. الغريزة هي كل شئ عدا أن تكون دافعاً غير محدد أعمى لأنه ثبت أنها تتكيف وتتناغم مع موقف خارجي محدد. يعطيها هذا الظرف الأخير شكلها المحدد غير القابل للاختزال مثلما الغريزة أصيلة وموروثة فكذلك شكلها محدد منذ الأزل أي نمط أولي. إنه أقدم وأكثر محافظة من شكل الجسم.

هذه الاعتبارات الحيوية تنطبق بالطبع على الإنسان العاقل الذي يظل داخل إطار علم الأحياء العام بالرغم من امتلاكه للوعي والإرادة والمنطق. وحقيقة أن فعلنا الشعوري له جذور ممتدة في الغرائز ويستقي منها دينامياته وكذا الخصائص الأساسية لشكله الأفكاري، هي حقيقة لها نفس المغزى بالنسبة لعلم نفس الإنسان مثلما مغزاها بالنسبة لكل أعضاء المملكة الحيوانية الآخرين. تتكون المعرفة البشرية أساساً من التكيف المستمر للأنماط البدائية الأولية للأفكار التي أعطيت لنا مسبقاً. وهي تحتاج لبعض التحويرات لأنها في شكلها الأصيل تلائم شكلاً عتيقاً من أشكال الحياة لكنها لا تلائم متطلبات مناخ محيط متميز محدد. لو استمر تدفق الدينامية الغريزية في حياتنا وهو أمر ضروري بشكل مطلق كي نستمر

---

[1] . تلك لحظة كلاسيكية للتعبير الرمزي في الحشرات والنباتات.

موجودين فمن الضروري إعادة تشكيل هذه الأنماط الأولية في أفكار تلائم تحديات الحاضر.

٥

المقاربة الفلسفية والنفسية في الحياة

للأسف فإن أفكارنا لها نزعة حتمية، وهي أنها تتخلف عن مواكبة التغيرات في الوضع الإجمالي. لا يمكنها أن تفعل غيرها طالما لم يتغير شيء في العالم تظل متكيفة بشكل أو بآخر، ومن ثم تعمل بشكل مُرضٍ. ومن ثم لا يوجد سبب معروف يدعو لتغييرها وتكيفها من جديد فقط عندما تتغير الظروف بشكل درامي جاد وتظهر هوة شاسعة بين الموقف الخارجي وبين الأفكار الخاصة بنا التي صارت عتيقة الآن، عندئذ تظهر للوجود مشكلة رؤيتنا للعالم بشكل عام أو فلسفة حياتنا ومعها يظهر سؤال كيف يعاد توجيه الصور الأولية التي تحافظ على تدفق الطاقة الغريزية أو كيف يعاد تكيفها؟ لا يمكن أن نستبدلها ويحل محلها تشكيل منطقي جديد، لأن هذا سيتشكل أيضاً تشكيلاً كبيراً من خلال الموقف الخارجي وليس عبر الحاجات البيولوجية للإنسان. الأكثر من ذلك فهي لن تبني أي جسر مع الإنسان الأعلى وستغلق كل مقاربة ممكنة معه. وهذا يتفق مع أهداف التربية الماركسية التي تبحث عن تشكيل الإنسان وكأنها الإله ذاته ولكن في صورة الدولة. ولقد صارت معتقداتنا الأساسية اليوم منطقية رشيدة. لم تعد فلسفتنا طريقة حياة كما كان الأمر قديماً بل تحولت إلى عمل أكاديمي ذهني مغلق. وتعبر أدياننا القائمة بطقوسها العتيقة

ومفاهيمها القديمة المبررة في ذاتها فقط، تعبيراً غريباً عن وجهة النظر للعالم لم تكن تسبب مشاكل كبيرة في القرون الوسطى لكنها صارت غريبة غبية بالنسبة لإنسان اليوم. وبالرغم من هذا الصراع مع العلم الحديث ونظرته فإن الغريزة العميقة تدفع الإنسان اليوم إلى التعلق بأفكار لو فهمت حرفياً لأخرجت من الحسبان كل التطورات العقلية التي حدثت في الخمسمائة سنة الأخيرة. والغرض الواضح هو منعه من السقوط في الهوة العدمية لليأس. لكن حتى عندما نحس كمنطقيين بضرورة نقد الدين المعاصر بوصفه حرفياً ضيق الأفق عديم الجدوى لا يجب أن ننسى على الإطلاق أن المعتقدات تعلن عن نسق فكري تمتلك رموزه حياة في ذاتها بسبب خاصية النموذج الأولي أو النمط البدائي الموجود فيها بالرغم من إختلافنا مع تفسيراتها. ومن ثم فلا جدال حول ضرورة الفهم الذكي في كل الأحوال، لكننا نستدعيه فقط عندما لا يكفينا التقويم عبر الإحساس والحدس، أي عند أولئك البشر الذين يكون الذكاء لديهم أهم وأقوى نقاط الإعتقاد.

وليس أكثر تميزاً وإعراضاً في هذا الصدد من الهوة التي إنفتحت بين الإيمان والمعرفة. لقد صار التقابل ضخماً لدرجة أن المرء مجبر على الحديث عن عدم إمكانية التوفيق بين هاتين الفئتين وإستحالة رأب الصدع بين رؤيتهما للعالم. بالرغم من أنهما يتهمان نفس العالم الأمبريقي الذي يغش فيه فحتى علم اللاهوت يخبرنا بأن الإيمان تدعمه وقائع صارت مدركة تاريخياً في هذا العالم المعروف وبالتحديد أن المسيح قد ولد كبشر حقيقي وحقق معجزات كثيرة وعانى مصيره وقدره ومات بأمر بيلاطس البنطي، وقام بجسده بعد موته. يرفض علم اللاهوت أي نزعة للنظر في عبارات سجلاته المبكرة بوصفها أساطير مكتوبة ومن ثم يفهمها بشكل رمزي. وفي الواقع فقد قام علماء اللاهوت أنفسهم بمحاولة- وبلا شك كان هذا نوع من التراجع أمام المعرفة- لإلغاء البعد الأسطوري في موضوع إيمانهم وهم يحاولون رسم خط إعتباطي فاصل عند

النقاط الحاسمة. لكن بالنسبة للذهن النقدي فمن الواضح الجلي أن الأسطورة مكون أساسي في كل الأديان ومن ثم لا يمكن إلغاؤه من التأكيد على الإيمان دون الإضرار بالدين ذاته.

إن الإنفصام الحادث بين الإيمان والمعرفة هو عرض للشعور المنفصم الذي يميز بوضوح المرض النفسي الشائع في أيامنا هذه. يبدو الأمر كما لو أن شخصين مختلفين يدليان بتصريحات عن نفس الأمر وكل منهما يتكلم من خلال رؤيته الخاصة، أو كما لو أن شخصاً يرسم صورة لخبرته في حالتين ذهنيتين مختلفتين. ولو وضعنا المجتمع الحديث محل الشخص فمن الواضح أن الأول يعاني من تشظي ذهني أي إضطراب عصابي. وبالنظر لهذا لن تنحل الأمور على الإطلاق لو جذب أحدهم لليمين والآخر لليسار. هذا هو ما يحدث في كل نفس عصابية ويؤدي لآلامها العميقة، وهذه الآلام تحديداً هي ما يجلب المريض للطبيب.

وكما قلت من قبل بإختصار بالرغم من أني لم أتجاهل ذكر بعض التفاصيل النفسية التي كان حذفها سيحدث بلبلة عند القاريء، فإن على الطبيب أن يقيم علاقة مع نصفي الشخصية عند المريض لأن منهما معاً، وليس من أيهما مع كبت الآخر، يمكن أن يصيغ الطبيب رجلاً كاملاً تاماً. إن محاولة كبت أحد النصفين هي ما كان يقوم به المريض طوال الوقت، فرؤية العالم الحديث لا تعطيه إرشاداً آخر. موقف الفرد يماثل الموقف الجماعي. إنه كون صغير إجتماعي يعكس على أصغر مدى كميات المجتمع ككل أو بالعكس بوصفه أقل وحدة إجتماعية، عندما نجمع تلك الوحدات معاً يحدث التحلل الإجتماعي. والإحتمال الأخير هو على الأغلب الأكثر إحتمالاً، حيث أن حامل الحياة المباشر والصلب هو شخصية الفرد بينما المجتمع والدولة هما فكرتان شائعتان ويمكنهما إدعاء الواقعية فقط طالما يمثلان من خلال عدد من الأفراد.

أعطي انتباهاً قليلاً حقاً لواقعة أن عصرنا هذا بالرغم من كل لا

دينيته، مُحمّل بالوراثة بإنجاز الحقبة المسيحية، أي سيادة الكلمة أو اللوجوس Logos التي تمثل الشكل المركزي لإيماننا المسيحي. لقد صار الكلمة ربنا بالمعنى الحرفي، وإستقر حتى لو كنا نعرف المسيحية فقط من خلال الهرطقات. لقد تحولت كلمات مثل المجتمع والدولة لبناء مادي صلب حتى كادا أن يتشخصا، في رأي رجل الشارع، فالدولة هي مانح كل السلع من معين لا ينضب وأكبر بكثير من أي ملك آخر في التاريخ، الدولة تُدان، وتُجعل مسئولة، وتُطالب وهكذا. ويرفع المجتمع إلى مستوى المبدأ الأخلاقي الأعلى، وفي الواقع يحمل قدرات إبداعية إيجابية.

لم يلاحظ أحد على الإطلاق أن تقديس الكلمة Logos وهو أمر ضروري في مرحلة معينة من مراحل التطور التاريخي كان له جانب ظل مخيف. أي أنه في لحظة وصول الكلمة Logos كنتيجة لقرون من التربية للقيمة العمومية الكونية فقد فصمت رابطتها الأصلية مع الرب. عندئذ نحن أمام كنيسة مُشخصنة، ودولة مُشخصنة، وإيمان بالكلمة Logos عقيدي، والكلمة Logos ذاته شعار جهنمي قادر على كل خداع. ومع الإعتناق العقيدي تأتي البروباجندا أو الدعاية لخداع المواطن بهراء سياسي وتلفيق، وتصل الكذبة لأبعاد فلكية لم تعرف من قبل في التاريخ.

ومن ثم يصير الكلمة Logos في إنجيل يوحنا مصدر للنزاع وعدم الثقة بين الجميع وضد الجميع بعد أن كان إعلاناً أصيلاً لوحدة كل البشر وإتحادهم في شخصه ، الإنسان الأكمل والأعظم. الإعتناق العقيدي هو أحد أشد أعدائنا لكنه دائماً محط تحول العصابي الذي يلجأ إليه لأجل إشباع الشك في صدره أو خداع ذاته ليخرج من الوجود. يعتقد الناس أن كا ما عليك هو أن تخبر شخصاً ما أن عليه أن يفعل شيئاً ما لأجل وضعه على الطريق الصواب. لكن ما إذا كان بوسعه أن يفعل أو سيفعل هو أمر مختلف تماماً. وصل عالم النفس إلى قناعة أنه لا يمكن تحقيق أي شيء بمجرد الإجبار أو الإقناع أو النصح أو الوعظ. عليه أن يتعرف على التفاصيل

وتتكون لديه معرفة أصيلة عن التركيب النفسي لمريضه. عليه أن يقيم علاقة مع فردانية الشخص الذي يعاني ويتحسس طريقه عبر كل منحنيات وتعرجات ذهنية لدرجة تتجاوز بمراحل قدرة المدرس أو حتى مرشد أخلاقي. وتساعده موضوعيته العلمية التي لا تستبعد شيئاً على رؤية مريضه ليس فقط ككائن بشري ولكن أيضاً ككائن أقل من البشر مرتبط بجسده مثل الحيوان. لقد وجه تطور العلم إنتباهه ليتجاوز مدى الشخصية الشعورية ليصل إلى عالم اللا شعور الغريزي الذي تسوده جنسية وغريزية السلطة (أو توكيد الذات) وهما يناظران المفهومين التوأمين عند القديس أوغسطينوس الجنس والسطوة. ويعتبر الصدام بين هاتين الغريزتين الأساسيتين (حفظ النوع وحفظ الذات) مصدر عدة أنواع من الصراع. ومن ثم فهما الغرض الأساسي للحكم الأخلاقي والهدف هو منع هذا الإصطدام الغريزي بقدر الإمكان.

وكما شرحت من قبل ثمة جانبين أساسيين في الغريزة أحدهما الدينامية أو الدافع أو المحرك، والآخر المعنى المحدد والغرض. ومن المحتمل أن كل الوظائف النفسية في الإنسان لها أساس غريزي كما هو واضح عند الحيوان. من السهل أن نرى الغرائز عند الحيوانات بإعتبارها المحرك الأساسي لسلوكها. تفتقد هذه الملاحظة اليقينية فقط عندما تبدأ القدرة على التعلم في التطور، مثلاً في القردة العليا والإنسان. في الحيوانات وكنتيجة لقدرتها على التعلم تتحور الغرائز وتتمايز، وفي حالة الإنسان المتحضر تنقسم الغرائز لدرجة أننا لا نستطيع تمييز إلا بضعة من الأساسية منها في شكلها الأصلي. أهم تلك الغرائز هما الغريزتان الأساسيتان وهما اللتان كانتا موضع الإهتمام الأساسي كما في علم النفس الطبي حتى الآن. وقد وجد الباحثون أنه عند تتبع تفرعات الغرائز يمكنهم إكتشاف أشكال لا يمكن وضعها في أي مجموعة بشكل دقيق. وكمثال وحيد شك مكتشف غريزة السلطة فيما إذا كان التعبير الواضح لا مراء فيه عن الغريزية الجنسية، حتى أنه يفضل تسميته

بتنظيم القوة، وأحس فرويد بأنه مضطر للإعتراف بوجود غرائز الأنا بالإضافة لغريزة الجنس الطاغية، وهو تراجع واضح أمام أدلر ووجهة نظره. وبالنظر لعدم التأكد هذا فمن غير المدهش أنه يمكن تفسير الأعراض العصابية وبدون تناقض بإستخدام مصطلحات أي من النظريتين. وهذا لا يعني أن إحدى النظريتين أو كلتيهما على خطأ. على العكس فكلاهما على صواب نظري نسبي، وعلى العكس من التفضيلات الأحادية الدوجماتية فهما يتيحان ويفترضان وجود غرائز أخرى. وبالرغم من أنني قلت أن مسألة الغريزة البشرية تبعد كل البعد عن أن تكون مسألة بسيطة فلن نكون مخطئين إن إفترضنا أن القدرة على التعلم، وهي صفة تكاد تكون مقصورة على الإنسان، تقوم أساساً على غريزة التقليد الموجود عند الحيوانات. فمن طبيعة هذه الغريزة إثارة الإضطراب في غيرها من الأنشطة الغريزية وفي النهاية تحويرها كما نلاحظ مثلاً في أغاني الطيور عندما تتبنى ألحاناً أخرى.

لا شيء يُبعد الإنسان عن منطقة غرائزه أكثر من القدرة على التعلم والتي هي دافع أصيل نحو التحول المضطرد في إنماء السلوك البشري. إنها مسئولة أكثر من أي شيء آخر عن تغيير ظروف وجوده، وظهور الحاجة لتكيفات جديدة تجلبها الحضارة. وهي أيضاً مصدر للعديد من الاضطرابات النفسية والمصاعب المرتبطة بإغتراب الإنسان المتزايد عن أساسه الغرائزي أي تطوره وتعينه في معرفته الشعورية بنفسه ووعيه واهتمامه بالشعور على حساب اللا شعور. والنتيجة هي أن الإنسان الحديث يمكنه معرفة نفسه بقدر شعوره بنفسه ووعيه بها وهي قدرة تعتمد بشكل كبير على الظروف السيئة المحيطة، إن دافع المعرفة والتحكم فيها أجبرا أو أدخلا بعض التحويرات على نزعاته الغرائزية الأصلية. ومن ثم يوجه الشعور ذاته أساساً بملاحظة وفحص العالم المحيط به، وعليه أن يكيف موارده التقنية والنفسية لكل الغرائب الحادثة في هذا العالم. وهذه المهمة جد دقيقة وإنجازها مفيد جداً حتى أن الإنسان

ينسى نفسه في خضم هذه العملية فيفقد رؤية طبيعته الغرائزية ويضيع مفهومه عن نفسه في محل كينونته الحقيقية، وبهذه الطريقة ينزلق دون وعي أو إدراك إلى عالم المفاهيم الخالص حيث تحل منتجات نشاطه الشعوري محل الواقع بإضطراد. وأخيراً يضع الإنفصال عن طبيعته الغرائزية الإنسان المتحضر في صراع بين الشعور واللا شعور، والروح والمادة ، والمعرفة والإيمان، وهو إنفصام صار مرضياً منذ عجز الشعور عن إهمال أو كبت الجانب الغرائزي. ويبدأ تجميع الأفراد الذين دخلوا في هذه الحالة الحرجة حركة جماهيرية تدعي أنها المدافعة عن المكبوت. ووفقاً للنزعة السائدة في الشعور في البحث عن مصدر كل الأمراض في العالم الخارجي تتعالى الصرخات من أجل التغيير السياسي والإجتماعي الذي يفترض أنه سيحلٍ على الفور المشكلة الأعمق وهي إنفصام الشخصية. إذن فمتى أجيبت هذه المطالب تنبثق ظروف سياسية وإجتماعية تعيد هذه الأمراض للظهور في شكل مختلف. ما يحدث عندئذ هو عكس بسيط يعلو التحتي. ويأخذ الظل مكان النور، وحيث أن الأول فوضوي ومضطرب، لابد أن تعاني حرية الضعيف المتحرر من مشاكل الطغيان. كل هذا لا يمكن تجنبه لأن أصل الشر لم يُمس، وكل ما حدث هو أن الظل قد خرج إلى النور.

لقد حطت الثورة الشيوعية من قدر الإنسان أكثر بكثير مما فعل علم نفس الجماعة الديمقراطي، لأنها تسلبه حريته، ليس فقط بالمعنى الإجتماعي ولكن أيضاً على المستوى الأخلاقي والروحي. وبعيداً عن الصعوبات السياسية عانى الغرب تراجعاً نفسياً عظيماً أضر بنفسه بشكل غير سار أكثر حتى من أيام النازية في ألمانيا: إن وجود الديكتاتور يتيح لنا أن نشير بإصبعنا بعيداً عن أنفسنا وندين الظل. من الواضح أنه على الجانب الآخر من الجهة السياسية بينما نحن جانب الخير ونتعلم المثال الصواب. ألم يعترف مؤخراً أحد السياسيين بأنه "لا يمتلك خيالاً في الشر؟" بأسم الجميع كان يعبر عن حقيقة أن الإنسان الغربي في خطر أن يفقد ظله تماماً

ويعين ذاته مع شخصيته الروائية ويعين العالم في صورة مجردة رسمتها المنطقية العلمية. لم يعد عدوه الروحي والأخلاقي الذي صار واقعاً مثله تماماً سكن في صدره، بل صار يقطن القسم الجغرافي في الواقع خلف خط التقسيم، والذي لم يعد مجرد حدود سياسية بل صار قاسماً يفصل الإنسان الشعوري عن الإنسان اللا شعوري، وبشكل مزعج يتزايد بإضطراد. يفقد الفكر والإحساس إستقطابهما الداخلي وحيثما ضعف تأثير التوجه الديني حتى الرب ذاته لم يعد قادراً على ضبط إنفجار القوى النفسية السيادية التي خرجت من القمقم.

ولا تزعج فلسفتنا المنطقية بما إذا كان الآخر فينا والذي نصفه بالظل يتعاطف مع خططنا الشعورية ونوايانا. ومن الواضح أنها لا تعرف أننا نحمل في أنفسنا ظلاً حقيقياً له أساسه الوجودي في طبيعتنا الغريزية. تشكل دينامية وصورة الغرائز معاً، شكلاً مسبقاً لا يستطيع أي شخص أن يتجاوزه دون أن يخاطر أكبر مخاطرة بذاته. وثمة عواقب وخيمة تنجم عن خرق أو إهمال الغريزة تحدث هذه العواقب، على المستوى الفسيولوجي والنفسي على السواء، وتتطلب المساعدة الطبية.

عرفنا طوال أكثر من ٥٠٠ عام، أو كان بإمكاننا أن نعرف، أن ثمة لا شعور يعادل ويوازن الشعور. لقد قدم علم النفس الطبي كل الإثباتات التجريبية والأمبريقية الضرورية. ثمة واقع نفسي لا شعوري يؤثر بوضوح في الشعور ومحتوياته. كل هذا معروف لكن لا توجد إستنتاجات علمية نجمت عنه. ما زلنا نعمل ونفكر مثلما كنا نفعل من قبل كما لو أننا أحاديون ولسنا مزدوجين. ومن ثم نتخيل أنفسنا بوصفنا أبرياء ومنطقيين وإنسانيين. لا نفكر في الشك في دوافعنا أو في مسائلة أنفسنا عما يحييه الشخص الداخلي بصدد الأمور التي نفعلها في العالم الخارجي. لكن في الواقع إنه لمن المؤلم والسطحي وغير المنطقي لدينا أن نتجاوز رد فعل ونقطة تمركز اللا شعور وهو أمر غير صحي من الناحية النفسية

كذلك. يجوز أن ينظر المرء لقلبه أو معدته على أنهما بلا أهمية ويستحقا الإحتقار، ولكن هذا لا يمنع من وجود عواقب وخيمة لفرط الأكل، وفرط المجهود، وهما يؤثران في كل المرء. مازلنا نعتقد بعد أن الأخطاء النفسية وعواقبها يمكن الخلاص منها بمجرد الكلام، فالنفس تُعتبر أقل من الهواء بالنسبة لمعظم الناس. وبالمثل لا يمكن لأحد إنكار أنه دون النفس لن يوجد عالم على الإطلاق. ناهيك عن وجود عالم إنساني في الإنسان. في الواقع فإن كل شيء تقريباً يعتمد على روح الإنسان ووظائفها. لابد أنها تستحق كل الإهتمام الذي نعطيه لها وخاصة اليوم عندما يعترف الجميع بأن مشكل أو كوارث وإنجازات المستقبل لم تتحدد من خلال هجمات الحيوانات المتوحشة، ولا من لال الكوارث الطبيعية، ولا من خلال أخطار الأوبئة على مستوى العالم، ولكن ببساطة من خلال الثغرات النفسية في الإنسان. إنه يحتاج فقط إلى إضطراب غير محسوس في توازن رؤوس بضعة من حكامنا لكي يغرق العالم في الدم والنار والإشعاع. وتوجد الوسائل التقنية الضرورية أبداً على الجانبين. وثمة بعض الشكورات الشعورية التي لا يحكمها أي عدد داخلي والتي يمكننا الإنغماس فيها بسهولة كما رأينا من مثال "قائد" واحد. مازال شعور الإنسان الوحيد يتعلق كثيراً بالأشياء الخارجية حتى أنه يجعلهم مسئولين مسئولية مباشرة وكاملة وكأن القرار يعتمد عليهم تماماً. وأن تتحرر الحالة النفسية لبعض الأفراد مرة من سلوك الأشياء أمر نعتبره بعيداً وقليل الإحتمال بالرغم من أننا نلاحظ يومياً حدوث عدة أشياء غير منطقية من هذا القبيل.

تعود مشكلة الوعي أو الشعور في عالمنا أساساً إلى فقدان الغريزة وسبب هذا يكمن في تطور العقل البشري في الفترة الأخيرة. كلما زادت سلطة الإنسان على الطبيعة كلما إندفعت مهارته ومعرفته لرأسه، وكلما تعمق إحتقاره لكل ما هو محرر طبيعي أو عرضي وكل ما هو نتيجة غير منطقية، بما في ذلك النفس الموضوعية، أي كل ما هو ليس شعورياً. والمقابل لذاتية العقل الشعوري سنجد

أن اللا شعور موضوعي يكشف نفسه أساساً في شكل أحاسيس متناقضة وتخيلات ومشاعر ودوافع وأحلام، وليس منها ما يصنعه المرء بذاته لكنها تأتي إلى المرء موضوعياً. وحتى اليوم ما يزال علم النفس علم المحتويات الشعورية في معظمه- يعكس بقدر الإمكان عبر معايير جماعية- صارت النفس الفردية مجرد حادثة أو ظاهرة عشوائية بينما يتم تجاهل اللا شعور الذي يعبر عن نفسه فقط في الكائن البشري الحقيقي المعطي بشكل غير منطقي تجاهلاً تاماً. لم يكن هذا نتيجة الإهمال أو قلة المعرفة، لكنه نتيجة مقاومة مباشرة للفكرة المجردة القائلة بإمكانية سلطة نفسية ثانية بجانب الأنا، تبدو هذه الفكرة إزعاجاً حقيقياً للأنا فهي تهدد سلطانها المطلق وتشك فيه. بينما نجد على الجانب الآخر أن الشخص المتدين قد إعتاد على فكرة أنه ليس السيد الوحيد في منزله. إنه يؤمن بأن الله وليس هو، هو من يقرر في النهاية، لكن كم منا يجرؤ على ترك إرادة الله تقرر، ومن منا شعر بالحرج في أن عليه أن يقول بمدى تدخل الرب ذاته في قراراته؟

وعلى حسب تقدير المرء فإن الشخص المتدين يقف مباشرة تحت تأثير رد الفعل القادم من اللا شعور. وكقاعدة يدعو هذه العملية بالضمير، ولكن حيث أن نفس الخلفية النفسية تنتج ردود أفعال تختلف عن الأخلاقية منها فإن المؤمن يقيس ضميره عبر معايير أخلاقية تقليدية، ومن ثم عبر قيمة جماعية، وفي هذا المنطلق نجد أنه مدعوم بقوة من كنيسته. وطالما كان بوسع الفرد التمسك بقوة بمعتقداته التقليدية ولا تتطلب ظروف زمانه تأكيداً أقوى على إستقلال الفرد فبوسعه أن يظل مرتاحاً في موقفه. لكن الموقف يتغير تغيراً جذرياً عندما يظهر الإنسان الدنيوي علماني التفكير الموجه لعوامل خارجية. والفاقد لمعتقداته الدينية كما هي الحال اليوم. من ثم يجبر المؤمن على إتخاذ موقفٍ دفاعيٍّ وعليه أن يبرز نفسه على أساس معتقداته. لم يعد مدعوماً من قبل القوة الإيجابية الهائلة للضمير الإلهي وهو يدرك تماماً ضعف الكنيسة

وخطر فرضياتها الدوجماتية. ولمعاكسة هذا تطلب الكنيسة المزيد من الإيمان وكأن هبة الله تلك تعتمد على إرادة الإنسان ومنعته أن الإيمان مركزه ليس الشعور لكن النبرة الدينية العفوية مما يجلب إيمان الفرد إلى علاقة مباشرة مع الرب.

هنا يتوجب علينا أن نسأل: هل لديَّ أي خبرة دينية أو علاقة مباشرة مع الرب، ومن ثم أمتلك ذلك اليقين الذي سيحفظني من الذوبان كفرد في الجمهور؟

٦

معرفة الذات

ثمة إجابة إيجابية على هذا السؤال، فقط عندما يكون الفرد على إستعداد للوفاء بالإلتزامات ومتطلبات الفحص الذاتي الصارم، ومعرفة الذات. لو إتبع نواياه لن يكشف فقط بعض الحقائق الهامة عن ذاته لكنه أيضاً سيكسب تميزاً نفسياً سينجح في تحرير نفسه وجعلها تستحق الإهتمام الجاد والإنتباه المتعاطف. سيضع يده كما كانت على إعلان كرامته الإنسانية وسيتخذ الخطوة الأولى نحو تأسيس وعيه، أي نحو اللا شعور وهو المصدر الوحيد المتاح للخبرة الدينية. وهذا لا يعني إطلاقاً أننا نقول أن اللا شعور يتطابق مع الرب أو نضعه في مكانه. إنه الوسط الذي يبدو أن التجربة الدينية تنجح وتنطلق منه. وبالنسبة للسبب الآخر المؤدي لهذه الخبرة فإن الإجابة على هذا تخرج عن نطاق المعرفة البشرية، معرفة الإله هي مشكلة تسامي.

يتمتع الشخص المتدين بميزة هائلة عندما نصل إلى الإجابة على السؤال الحاسم الذي يتأرجح فوق زماننا وكأنه تهديد. إنه يعرف بوضوح كيف يتأسس وجوده الذاتي على علاقته مع "الرب"، وأنا أضع كلمة "الرب" بين قوسين هنا لأشير إلى أننا نتعاطف مع فكرة تشبيهية إنسانية حيث تترشح ديناميا ورمزياً عبر وسط اللا شعور.

يستطيع أي كان ويريد على الأقل الإقتراب من مصدر هذه الخبرات سواء كانٍ يؤمن بالرب أو لا يؤمن. بدون هذه المقاربةفنحن نرى حالات التحول المعجزة التي تستقي نموذجها الأولى من هذه الخبرات من حالة بولس الرسول أثناء سفره على طريق دمشق، في حالات نادرة. لا تحتاج التجربة الدينية لإثبات وجودها، لكننا سنظل دائماً في شك ما إذا كان ما تدعوه الميتافيزيقا ويسميه علم اللاهوت بإسم الإله و الأرباب، هم مصدر تلك الخبرات الحقيقي. السؤال فارغ في الواقع ويجيب على نفسه من خلال الذاتية الهائلة الموجودة في التجربة. أي من مر بها تتملكه ومن ثم فهو ليس في موقف يسمح له بالإنخراط في تأملات فارغة سواء ميتافيزيقية أو معرفية أبستمولوجية بجلب اليقين المطلق دليله الخاص ولا يحتاج لأدلة تشبيهية إنسانية.

وبالنظرِ للجهل العام والتحيز ضد علم النفس لابد أن من سوء الحظ حقاً أن التجربة الوحيدة التي تعطي الوجود الفردي معنى يجب أن تنبثق في وسط يتحيز ضده الناس جميعاً بكل تأكيد. ومرة أخرى نسمع الشك يعلو "أمن الناس يأتي شيء صالح؟" لو لم ننظر للاشعور بشكل مباشر كنوع من سلة المهملات الواقعة تحت العقل الشعوري فنحن نفترض أنه ذو طبيعة حيوانية. في الواقع ومن خلال التعرف فإن طبيعته وإمتداده غير محددين ومن ثم فلا معنى للتقييم المفرط أو للتقليل منه وما هما إلا مجرد تحيز. وعلى كل الأحوال فإن هذه الأحكام تبدو جد غريبة في أفواه المسيحيين الذين ولد ربهم ذاته على قش في إسطبل بين حيوانات داجنة. ربما كان سيلائم ذوق الأغلبية أكثر لو ولد في هيكل أو معبد. وبنفس الطريقة فإن الإنسان الجماهيري ذو العقل الدنيوي العلماني ينظر للتجربة الإعجازية في لقاء الجماهير الذي يوفر له خلفية أعمق من الروح الفردية. وللأسف فإن المسيحيين المنتمين للكنيسة يشتركون معه في هذا الوهم الخبيث.

إن إصرار علم النفس على أهمية العمليات اللا شعورية للخبرة الدينية هو أمر غير شائع على الإطلاق سواء بين اليمين أو اليسار في مجال السياسة. المهم بالنسبة للأدلة والكشف التاريخي الذي أتى للإنسان من خارجه، وبالنسبة للأخير فهذا محض هراء ولا وجود للوظيفة الدينية عن الإنسان على الإطلاق ما عدا الإيمان بخط الحزب، عندما يحتاج لأي نوعٍ من الإيمان العميق. وفوق هذا فإن المعتقدات المتعددة تؤكد أموراً جد مختلفة، وكل منها يدعي إمتلاك الحقيقة المطلقة، بيد أننا نعيش اليوم في عالم واحد حيث تحسب المسافات بالساعات وليس بالأسابيع أو الشهور. توقفت الأعراق الغرائبية عن أن تكون عروض جذب في متحف الأثنولوجية. لقد صار جيراننا وما كان بالأمس موضوع دراسة عالم الأثنولوجية، صار اليوم مشكلة سياسية وإجتماعية ونفسية. وبدأت المناطق الأيديولوجية في التماس مع وإختراق هذه المناطق، واليوم الذي يصير فيه التفاهم المشترك ملحاً حول هذه النقطة ليس ببعيد. ولكي يصير المرء مفهوماً فهذا أمر مستحيل بالتأكيد بدون فهم بعيد المدى لنقطة فهم الآخر. وسيحدث الحدس الضروري لهذا صدىً قوياً على الجانبين، وسيتجاوز التاريخ بلا شك أولئك الذين مازالوا يحسون أن واجبهم هو مقاومة هذا التطور الحتمي، مهما كان مرغوباً فيه وضرورة نفسية أن نتعلق بكل ما هو أساسي و طيب في تقاليدنا؟ وبالرغم من كل الإختلافات ستؤكد وحدة البشر نفسها، بكل تأكيد. وسيلعب الماركسيون بكل ما يملكون على هذه الورقة بينما يأمل الغرب في الوصول عبر التقنية والمساعدة الإقتصادية. ولم تغفل الشيوعية البعد الهائل للعنصر الأيديولوجي وعمومية المباديء الأساسية. وتشاركنا لهم الشرق الأقصى في ضعفنا الأيديولوجي وهي معرضة للخطر بالمثل.

ومن المحتمل أن التقليل من أهمية العنصر النفسي سيؤدي لإنتقام مر، ومن ثم فقد حان الوقت لكي نلحق بأنفسنا في هذا الصدد. وحتى الآن يجب أن يظل هذا أمنية طيبة لأن معرفة الذات بالإضافة

لكونها أمراً غير شائع ولا مرغوباً فهي تبدو أيضاً مجرد هدف مثالي، ومليئة بالأخلاق وتنشغل كثيراً بالظل النفسي، وهو الأمر الذي ننكره عادة كلما قدرنا أو لا نتكلم عنه في أحسن الأحوال. إن المهمة التي تواجه عصرنا هي حقاً صعبة عسيرة. وتلقى بأقسى المطالب على عاتق مسئوليتنا إذا لم نرد أن نقوم بخيانة جديدة. إنها توجه كلامها لأولئك الذين يرشدون ويؤثرون في الناس من الشخصيات الهامة التي تمتلك الذكاء الكافي لفهم الموقف في عالمنا. يتوقع المرء منهم أن يستثيروا ضميرهم. لكن حيث أن المسألة ليست مجرد فهم ذكي ولكن إستنتاجات أخلاقية فللأسف لا يوجد ما يدعو للتفاؤل. الطبيعة، كما نعلم، لا تهب بسخاء بحيث تجمع بين الذكاء المتقد ونعمة القلب أيضاً. وكقاعدة عندما توجد إحدى القدرتين فإننا نفتقد الأخرى، ومتى توافرت إحداهما بتمامها يكون هذا عادة على حساب كل القدرات الأخرى. إن التفرقة بين الذكاء والأحاسيس اللذين يقفان في طريق بعضهما البعض في أفضل الأوقات هو فصل مؤلم بصفة خاصة في تاريخ النفس البشرية.

لا معنى لصياغة المهمة التي أجبرنا عليها عصرنا كطلب أخلاقي. نستطيع في أفضل الأحوال أن نجعل موقف العالم النفسي واضحاً جداً بحيث يراه حتى قصير النظر، ويعطي كلمات وأفكار يسمعها من به صمم. ونستطيع أن نتأمل في أناس ذوي فهم وأناس ذوي نوايا حسنة، ومن ثم علينا ألا نمل أو نكل من ترديد الأفكار والحدس الضروريين. أخيراً؛ حتى الحقيقة يمكن أن تنتشر وليس فقط الكذبة الشائعة.

بهذه الكلمات أود أن ألفت إنتباه القاريء إلى الصعوبة الأساسية التي عليه أن يواجهها. إن الرعب الذي جلبته الدول الديكتاتورية مؤخراً على الجنس البشري ليس أقل من ذروة الفظائع التي إقترفها أسلافنا في الماضي القريب. فبعيداً عن الأفعال البربرية وحمامات الدم التي إنتشرت بين الأمم المسيحية وبعضها البعض طوال التاريخ الأوروبي، على الأوروبيين أيضاً أن يدفعوا ثمن

كل الجرائم التي إرتكبوها ضد سُمر البشرة أثناء عملية الإستعمار. وفي هذا الصدد يحمل الإنسان الأبيض عبئاً ثقيلاً حقاً. فهي تظهر لنا صورة للظل الإنساني المشترك يصعب تلوينه بألوان أكثر قتامة. الشر الذي خرج إلى النور في الإنسان و الذي يعيش معه الآن، بلا شك، له قامة عملاقة حتى أن كلام الكنيسة عن الخطيئة الأولى وإرجاعها إلى خطيئة آدم النسبية مع حواء يبدو هراء في الواقع. الحالة أصعب وأخطر ونحن نقلل منها كثيراً.

وحيث أنه من المقبول عامة أن الإنسان هو مجرد ما يدركه شعوره عنه، فهو ينظر لنفسه على أنه غير ضار ومن ثم يضيف الغباء إلى إنعدام المساواة. إنه لا ينكر أن أموراً مرعبة قد حدثت وما تزال تحدث ودائماً الآخرون هم من يفعلونها. وعندما تنتمي مثل هذه الأفعال إلى الماضي القريب أو البعيد سرعان ما يبتلعها بحر النسيان و تعاوده حالة الذهن الخالي ونسميها نحن "السواء!" بالمقارنة المرعبة لهذا سنجد حقيقة أن لا شيء يضيع تماماً ويختفي وأن شيئاً لا يتحول إلى خير. الشر والخطيئة والإحساس العميق بعدم راحة الضمير والشرور الغامضة كلها أمام أعيننا هناك لو أردنا رؤيتها. لقد فعل الإنسان كل هذه الأمور وأنا إنسان وعليَّ أن أحمل نصيبي من الطبيعة البشرية ومن ثم فأنا مذنب مع الباقين وأحمل بداخلي القدرة على والرغبة في فعلها مرة أخرى ولن يتغير هذا قط. وحتى لو كنا بشكل قانوني غير مشاركين في الجريمة فنحن مجرمون محتملون بفضل طبيعتنا البشرية. في الواقع كل ما ينقصنا هو الفرصة السانحة كي نغرق بكاملنا في جحيم مماثل. ليس أحد منا خارجاً عن الظل الجماعي القاتم للبشرية، سواء كانت الجريمة قد حدثت منذ عدة أجيال أو حدثت اليوم، فهي عرض لشيء موجود دائماً وفي كل مكان، ومن ثم فمن الأفضل أن يمتلك الإنسان بعض "خيال الشر" فالأحمق فقط هو الذي يتجاهل دائماً ظروفاً أساسية في طبيعته. وفي الواقع فهذا التجاهل هو أفضل وسيلة تجعل منه أداة للشر. السذاجة وعدم الضرر مفيدان بقدر فائدتهما لمريض

الكوليرا، أو بالأحرى بقدر ما يفيد مريض الكوليرا وجيرانه أن يجهلوا إمكانية إنتقال المرض بالعدوى. على العكس فهما يؤديان إلى إسقاط الشر غير المدرك على الآخر، وهذا يدعم موقف الآخر بطريقة فعالة حيث يحمل الإسقاط معه الخوف الذي يحسه بلا إرادة وفي السر تجاه شرنا، وينقله للجانب الآخر ويزيد من تهديداته بشكل مرعب. والأسوأ من هذا فإن فقدان الحدس يحرمنا من القدرة على التعامل مع الشر. وهنا بالطبع سنجد أنفسنا في مواجهة أحد التعصبات الرئيسية في التقليد المسيحي وهو حجر عثرة أمام كل سياساتنا. علينا تجنب الشر كما قيل لنا فلا نلمسه، ولا نذكره حتى، حيث أن الشر نذير الشؤم، فهو المجرم والمرهوب، إنه التابو الأعظم. هذا السلوك نحو الشر وطريقة تفصيليته الواضحة تزيد من النزعة البدائية فينا، والتي تغلق أعيننا عن الشر وترسله عبر الحدود للآخر، وكأنه كبش الفداء في العهد القديم الذي يفترض أنه سيحمل الشر إلى البرية.

لكن إذا لم يكن بوسع المرء تجنب إدراك الشر بدون أن يختاره الإنسان كموجود في الطبيعة البشرية ذاتها فهو عندئذ يحتل المسرح النفسي بوصفه مساوياً للخير وشريكه المخالف أو النقيض له. هذا الإدراك يقودنا على الفور إلى ثنائية نفسية تظهر بوضوح وبشكل لا شعوري في الإنقسام الحادث على المسرح السياسي العالمي وحتى بشكل أوضح في التشظي الحادث داخل لا شعور الإنسان ذاته. الحقيقة أن الثنائية لا تأتي من الإدراك بل بالأحرى نحن في حالة إنقسام منذ البداية وسيكون الفكر مضنياً لو كان علينا تحمل المسئولية الشخصية عن كل هذا الدين ومن ثم نفضل تعيين الشر كائننا في المجرمين الأفراد أو مجموعات المجرمين بينما نغسل أيدينا في براءة ونتجاهل نزعتنا العامة نحو الشر. هذا التجاهل لا يمكن إستمراره على المدى البعيد، لأن الشر كما ترينا التجربة الموجودة في الإنسان ما لم يفترض المرء وفقاً للرؤية المسيحية مبدأ ميتافيزيقياً للشر. الميزة الكبرى لهذه الرؤية هي أنها تخلص

ضمير الإنسان من مسئولية جد ثقيلة وتلقيها على الشيطان في إتفاق نفسي صحيح مع حقيقة أن الإنسان هو ضحية لتركيبته النفسية أكثر منه مخترعها. وبالنظر إلى أن الشر في يومنا هذا يضع كل شيء أرَّقَ الإنسان وعذبه في أعمق أعماقه، لابد أن يسأل المرء نفسه كيف مع كل تقدمنا في إقامة العدالة والطب والتقنية وكل إهتمامنا بالحياة والصحة، كيف نستطيع إحتراع أدوات دمار مهولة متوحشة بوسعها تدمير الجنس البشري بسهولة والقضاء عليه قضاءاً مبرماً.

لا يدعي أحد أن علماء الطبيعة النووية ما هم إلا جماعة من المجرمين لأنه عبر مجهوداتهم وصلت لهذه الزهرة المذهلة من زهور العبقرية البشرية ألا وهي القنبلة الهيدروجينية. إن الكم الهائل من العمل الذهني الذي وضع في تطوير الفيزياء النووية قد قدمه رجال كرسوا أنفسهم لعملهم وبكل إخلاص وتضحية بالذات وإنجازهم الأخلاقي يمكنهم بسهولة من الفوز بحق إختراع شيء مفيد ونافع للبشرية. ورغم هذا فإن الخطوة الأولى على طريق الإختراع العظيم إنها نتيجة لقرار شعوري ولكن هنا أو في أي مكان تلعب الفكرة الآنية أو الحدس أو البديهة دوراً هاماً، بمعنى آخر يتعاون اللا شعور أيضاً وعادة ما يقدم إسهامات حاسمة. ومن ثم ليس الجهد الشعوري فقط هو المسئول عن النتيجة، فثمة جهد لا شعوري في مكانٍ ما لعبه اللا شعور بأهدافه الغامضة ونواياه المجهولة. لو وضع سلاحاً في يدك فهو لنوع من أنواع العنف. معرفة الحقيقة هي أسمى أهداف العلم وإذا تعثرنا أثناء سعينا الحثيث نحو النور في خطر داهم يحس المرء بالجبرية والقدرية أكثر من العمدية والتعمد. إن إنسان اليوم لا يقدر على شر أعظم من الإنسان البدائي أو القديم. إنه يمتلك وسائل أكثر فعالية بما لا يقارن وبها يستطيع إنجاز نزعته نحو الشر. ومع إزدياد وتمايز شعوره ووعيه تخلفت طبيعته الأخلاقية وتدهورت، وتلك هي المشكلة الأكبر التي تواجهنا اليوم، فالمنطق وحده لا يكفي.

نظرياً؛ في مقدور المنطق أن يبتعد عن التجارب ذات المدى المرعب مثل الإندماج النووي لمجرد خطورتها الداهمة. لكن الخوف من الشر الذي لا يراه المرء في صدره ولكن في كائن آخر يكبح المنطق ويلجمه دائماً بالرغم من أن المرء يدرك أن إستخدام مثل هذه الأسلحة يعني نهاية عالمنا الإنساني الحالي. قد يمنع خوفنا المقيم من الدمار الكوني من حدوث الأسوأ لكن إمكانية حدوثه ستظل معلقة فوقنا وكأنها سحابة سوداء داكنة طالما لم نجد جسراً يرأب الصدع الحادث على مستوى العالم نفسياً وسياسياً، جسراً بقوة وتوكيد القنبلة الهيدروجينية.

لو أمكن إيجاد وعي على مستوى العالم بأن كل الإنقسامات والتحزبات والعداوات مصدرها إنقسام المتناقضات في النفس لعرف المرء حقا أين نقطة الهجوم. لكن حتى لو إستمرت أقل الإضطرابات وأكثرها شخصية في النفس الفردية- والتي لا تمثل أهمية في ذاتها- لا شعورية كما هي وغير مدركة كما لو كانت منذ الأزل ستستمر في التراكم وتنتج تجمعات كتلية وحركات جماهيرية لا يمكن إخضاعها لضبط منطقي ولا تحويلها لأهداف خيرة. وكل الجهود المبذولة لفعل هذا لا تزيد عن كونها زوبعة في فنجان وأكثر من يتأثر بهذا الوهم هم من يثيرونها.

يوجد العامل الحاسم داخل الإنسان الفرد الذي لا يعرف إجابة على ثنائيته. فجأة فغرت تلك الهوة فاها أمام الفرد ومع آخر التطورات في تاريخ العالم وبعد أن عاش الجنس البشري طوال قرون عديدة يرتع في راحة الإيمان بأن إلهاً واحداً قد خلق الإنسان على صورته ومثاله. وحتى اليوم لا يدرك الناس حقيقة أن كلاً منا هو خلية في بنية ثمرة كائنات كونية ومن ثم فهو داخل ضمنياً في خضم صراعاتهم، يعرف الفرد أنه كفرد كائن لا معنى له ويحس بأنه ضحية لقوى لا يمكن التحكم فيها من على الجانب الآخر يحتضن داخله ظل خطر وعدو متداخل في الآليات المظلمة كمساعد خفي للوحش السياسي. من طابع الكيانات السياسية دائماً أن ترى الشر

في الجماعة العدوة مثلما ينزع الفرد نزوعاً لا يقاوم للخلاص من كل شيء لا يدريه ولا يريد أن يعرفه عن نفسه عن طريق إسقاطه على شخص آخر.

لا شيء يضر بالمجتمع ويغربه أكثر من هذا التواطء الأخلاقي وإنعدام المسئولية ولا شيء يحفز على الفهم والتقارب أكثر من إلغاء الإسقاط المشترك. وهذه الخطوة التصويبية تتطلب النقد الذاتي لأن المرء لا يمكنه أن يقول للآخر فقط أن عليه أن يلغي هذا الإسقاط. إنه لا يدرك الإسقاط في ذاته مثلما لا يدرك ذاته. يمكننا إدراك تجزأنا وأوهامنا فقط عندما نكون على إستعداد، إنطلاقاً من معرفة نفسية أوسع بأنفسنا وبالآخرين، لأن نشك في الصواب المطلق لفرضياتنا ونقارنها بحرص مع الوقائع الموضوعية. المضحك حقاً أن النقد الذاتي فكرة شائعة رائجة في الدول الماركسية لكنها تخضع هناك للإعتبارات الأيديولوجية، ولابد أن تخدم الدولة وليس الحقيقة ولا العدل، في تعاملات الناس مع بعضهم البعض. لا تنتوي دولة الجماهير أن تنشر الفهم المشترك والعلاقة بين الإنسان والإنسان، إنها تتوق بالأحرى إلى الذراتية والعزلة النفسية للفرد. كلما إزداد إنفصال الأفراد عن بعضهم البعض كلما رسخت الدولة والعكس صحيح.

لا شك أن المسافة بين الإنسان والإنسان في الديمقراطيات أيضاً أكبر من أن تؤدي إلى رفاه عام أو تنفع حاجاتنا النفسية. وصحيح أن ثمة محاولات من كل نوع لتسوية التناقضات الإجتماعية المتزايدة عن طريق نداء ضمير الناس وحماستهم ومُثلهم العليا، لكن المميز حقاً أن المرء ينسى أن يستخدم النقد الذاتي الضروري للإجابة عن السؤال: من يطلب المطالب المثالية؟ أليس من الصدفة أنه هو الذي يقفز على مطية ظله لأجل أن يصل لبرنامج طموح خادع يحجب عالم داخلي يعده بتقديم دليل نقي جميل؟ كما من الإحترام والأخلاق في هذا عندما نتسربل برداء مزخرف خادع يحجب عالماً داخلياً مختلفاً مظلماً؟ لابد وأن يتأكد المرء أولاً من

أن الإنسان الذي يتكلم عن المُثل هو مثالي في ذاته حتى أن كلماته وأفعاله أكثر مما قد تبدو عليه. أن تكون مثالياً هو أمر مستحيل ومن ثم يظل دائماً فرضية لاتتم. وحيث أن لنا دائماً ناقة في هذا الصدد فإن معظم المثاليات التي ينادي بها ويدعي إلهاً أمامنا تبدو فارغة خاوية ونقبلها فقط عندما يتم الإعتراف بعكسها صراحة. بدون هذا الإعتراف الصريح يصير المثال فوق طاقتنا البشرية ويصير لا يُصدق بسبب إنعدام روح المرح فيه ويتدهور إلى خدعة رغم أنها خدعة حسنة النية. الخدعة طريقة غير مشروعة لتجاوز الناس وكبحهم ولا تؤدي إلى خير أبداً.

إن إدراك الظل على الجانب الآخر يؤدي إلى التواضع الذي نحتاجه لمعرفة نقصنا. وهذا الإدراك الشعوري والإعتبار الواعي هو ما نحتاجه إن أردنا إقامة علاقة إنسانية في أي مكان. لا تقوم العلاقة الإنسانية على التمايز فهذه تؤكد فقط الإختلافات أو تدعو لعكسها ونقيضها، العلاقة تقوم بالأحرى على النقصان والضعف وقلة الحيلة الذي يحتاج للدعم، إنها أسباب ودوافع الإعتماد الأساسية. الكامل لا يحتاج للآخر، لكن الضعيف يحتاج لأنه يبحث عن الدعم و لا يواجه شريكه بأي شيء قد يجبره على الوقوف موقفاً أدنى أو يُحقره. يحدث هذا التحقير بسهولة حيثما لعبت المثالية دوراً حاسماً.

لا يجب إعتبار مثل هذه التأملات مجرد نزعات عاطفية ساذجة. إن مسألة العلاقة الإنسانية والتماسك الداخلي في مجتمعنا أمراً ملحاً، بالنظر للتشظي والذراتية التي يعاني منها رجل الجماهير الذي يأكل الشك العام كل علاقاته الشخصية.

كلما صارت العدالة أمراً مشكوكاً فيه وإزداد عمل جواسيس الشرطة والرعب، يسقط الإنسان في العزلة وهو هدف وغرض الدولة الديكتاتورية، لأنها تقوم على التراكم الأقصى الممكن للوحدات الإجتماعية منزوعة القيمة، عديمة الحيلة. ولنزع هذا

الخطر يحتاج المجتمع الحر إلى رابطة ذات طبيعة شعورية وجدانية، ومبدأ مثل الحب أو الرحمة مثلما في المسيحية: "أحب قريبك/ جارك كنفسك"، بيد أن محبة الإنسان لأخيه الإنسان هي ما تعاني أعظم المعاناة بسبب نقص الفهم الناجم عن الإسقاط. ومن ثم فمن مصلحة المجتمع الحر أن يفكر بعض الشيء في مسألة العلاقات الإنسانية من وجهة النظر النفسية، لأنه هنا يكمن التلاحم الحق و هنا بالتالي يكمن مصدر قوة المجتمع الحقيقية. عندما يتوقف الحب تبدأ القوة و العنف و الرعب.

لا تدعى هذه الخواطر و التأملات أنها مطالبة بمثالية ما، إنها تريد فقط توضيح الوعي بالموقف النفسي. أنا لا أدري أيهما أضعف المثالية أم حدس الناس. كل ما أعرفه هو أنها تحتاج للوقت كي تحدث التغيرات النفسية التي يمكنها التحمل على أي مستوى. إن الحدث الذي يأتي ببطء يحدث أثراً أعمق و أمضى و أطول مدىً كما يبدو لي من مجرد المثالية الكاذبة التي لا أعتقد أنها ستصمد طويلاً.

٧

معنى معرفة الذات

يحتوي ما يعتقد عصرنا أنه الظل والجزء الأدنى من النفس على أكثر من مجرد السلبيات. فثمة حقيقة أننا عبر معرفة الذات أي عبر إستكشاف أرواحنا نصل إلى غرائزنا وعالمها المصور، ونقول تلقي هذه الحقيقة بعض الصور على القوى الكامنة في النفس ولا ندري عنها شيئاً طالما أن كل شيء على ما يرام. إنها إمكانيات الديناميات الأعظم وبناءاً على إستعداد وسلوك العقل الشعوري يتجه إنبثاق هذه القوى والصور والأفكار المرتبطة بها نحو البناء أو الكارثة. بيد أن عالم النفس هو الشخص الوحيد الذي يعرف عبر الخبرة مدى هشاشة الإستعداد النفسي عند الإنسان الحديث، لأنه الوحيد الذي يرى نفسه مجبراً على البحث في طبيعة الإنسان ليجد تلك القوى والأفكار المساعدة التي مكنته مراراً وتكراراً من إيجاد الطريق الصواب عبر الظلام والخطر. ولهذا يحتاج عالم النفس إلى صبره ولابد ألا يلجأ الفرد لواجبه التقليدي تاركاً الشخص الآخر يؤدي كل المجهود ومكتفياً بدور الناصح الواعظ السهل.

يعرف الجميع عقم الوعظ حول الأمور المنشودة بيد أن إنعدام الحيلة العام في هذا الموقف كبير والحاجة شديدة حتى أن المرء

يُفضل تكرار الخطأ القديم المعني بعصف عقل المرء حول مشكلة ذاتية. أيضاً المشكلة هي معالجة فرد واحد وليس عشرات الألوف حيث قد يحدث الجهد الذي يبذله المرء تغييراً أفضل رغم أن المرء يعرف جيداً أن لا شيء سيحدث ما لم يتغيز الفرد.

قد لا يظهر التأثير المنشود على كل الأفراد طوال مئات السنين، حيث أن التحول الروحاني للجنس البشري يتبع خطوات القرون البطيئة ولا يمكن التسريع فيه أو تعطيله عبر أية عملية منطقية أو أي تأمل، ناهيك أن يثمر في جيل واحد من ما هو موجود في نطاقنا هو تغير الأفراد الذين لديهم فرصة أو خلقوا فرصة التأثير في الأخرين من ذزي العقول المشابهة في نطاق دوائر معارفهم. وأنا لا أعني عبر الإغواء أو الوعظ- أنا أفكر في الواقع في حقيقة مشهورة-أن كل من لديه إدراك لأفعاله ومن ثم وجد سبيلاً إلى شعوره سيجد نفسه لا أرادياً يمارس تأثيراً على مناخه المحيط.

إن تعميق وتوسيع الوعي ينتج الأثر الذي يدعوه البدائيون "المانا". إنها التأثير غير المتعمد على لا شعور الآخرين كنوع من المكانة اللا شعورية. ويظل هذا التأثير مستمراً طالما لم تعكر نوايا شعورية.

أيضاً لا يلغي طلب معرفة الذات تماماً مجال تعيين المجتمع لأن هناك عاملاً، رغم أننا نتغاضى عنه تماماً، يلاقينا في منتصف الطريق. إنه شبح الوقت اللا شعوري، يعادل هذا الإتجاه السلوكي للعقل الشعوري ويتوقع التغيرات القادمة. ومن الأمثلة الممتازة على هذا الفن الحديث: بالرغم من أنه يبدو وأنه يعالج مشاكل جمالية فهو في الواقع يقدم تربية نفسية للجمهور، عبر تفتيت وتدمير رؤاه الجمالية السابقة عما هو جميل في الشكل وله معنى في المضمون. بدلاً من متعة الناتج الفني نحصل على تجريدات باردة ذات طبيعة جد ذاتية تلطم بشدة الباب وتغلقه أمام السذاجة الرومانسية في الحواس وإجبارها على حب الموضوع. إنه يقول

لنا بلغة بسيطة وعامة أن الروح التنبؤية للفن قد إبتعدت عن الموضوع القديم وعلاقتها به، وإتجهت نحو فوضى الذاتية المظلمة في الوقت الحاضر. وبالتأكيد لم يكشف الفن بعد كما نستطيع أن نحكم في هذا الظلام ما هو هذا الشيء الذي يمسك بكل الناس معاً ويستطيع أن يعطي تعبيراً عن كلياتهم النفسية. وحيث أنه يبدو أن التأمل ضروري لهذا الغرض يبدو أن هذه الإكتشافات محفوظة لمجالات بحثية أخرى.

إستمد الفن العظيم، حتى الآن، ثماره من الأسطورة من العملية اللاشعورية للترميز والتي إستمرت عبر العصور وستستمر لتكون جذراً لكل إبداع في المستقبل وأصله لأنها التعبير الأولي عن الروح البشرية. لابد أن نفهم أن تطور الفن الحديث بكل نوازعه العدمية الظاهرة نحو التفتيت والتفكيك والتحلل بوصفه عرضاً ورمزاً لإتجاه سلوكي مزاجي يعبر عن حصار العالم وإعادة تجديده وقد ألقى ببصمته على عصرنا. هذا المزاج نحسه في كل مكان سواء سياسياً أو إجتماعياً أو فلسفياً. إننا نعيش فيما دعاه الإغريق "كايفوس" أو الوقت المناسب لنسخ الآلهة، أي تغيير المباديء الأصلية والرموز الأولية. إن خصوصية زماننا هذا، وهي ليست إختيارنا الشعوري بالتأكيد، هي تعبير عن الإنسان اللا شعوري بداخليتنا والذي يتغير. وعلى الأجيال القادمة أن تضع في حسبانها هذا التحول الهائل التاريخي إذا لم ترد الإنسانية أن تدمر ذاتها عبر جبروت تقنيتها وعلمها.

في بداية العصر المسيحي واجهتنا وتواجهنا الآن مشكلة التخلف الأخلاقي الذي فشل في مواكبة تقدمنا العلمي والتقني والإجتماعي. ثمة الكثير مما نخاطر به، والكثير يعتمد على التركيب النفسي للإنسان الحديث. هل يستطيع أن يقاوم إغراء إستخدام قوته لغرض تدمير العالم؟ هل يدرك الطريق الذي يخطو عليه وما هي الإستنتاجات التي لابد أن يصل إليها من وضع العالم المعاصر وموقفه النفسي؟ هل يعرف أنه على شفا حفرة سيفقد فيها أسطورة

الحفاظ على حياة الإنسان الداخلية التي راعتها المسيحية له؟ هل يدرك ما هو مخبوء له لو وقعت الواقعة؟ وهل هو قادر على الإدراك أن تلك كارثة محققة؟ وأخيرا؛ هل يعرف الفرد أنه الريشة التي تجعل الميزان يهبط؟

الفرد وحده وليس الدولة هو من يستطيع أن يعيش خبرة السعادة والرضا وإمتلاء الروح ومعنى الحياة الطيبة، وما الدولة إلا مجرد إتفاق قبله أفراد مستعلون وهي في الجانب الآخر تحاول بإستمرار أن تهدد وتشل وتكبت الفرد. إن الطبيب النفسي هو أحد أولئك البشر الذين يعرفون الكثير عن شروط رفاة الروح وهو الأمر الذي تعتمد عليه كل الأشياء في المجموع الإجتماعي. بالتأكيد ثمة أهمية عظمى للظروف السياسية والإجتماعية في وقتنا هذا لكن أهميتها بالنسبة لسعادة أو تعاسة الفرد قد أفرطنا كثيراً في تقديرها طالما اعتقدنا أنها العوامل المحددة الوحيدة. في هذا الصدد ترتكب كل أهدافنا الإجتماعية خطأ التغاضي عن نفس الشخص الذي هو الهدف الوحيد ويسعون بدلاً من ذلك عادة إلى تنمية أوهامه. ومن ثم فأنا آمل أن يسمح لطبيب نفسي عاش حياة طويلة كرسها لأسباب وعواقب الأمراض النفسية بأن يعبر عن رأية بكل تواضع موجود عنده كفرد، وحول الأسئلة التي يطرحها حول وضع العالم الراهن.
لا يحفزني تفاؤل مفرط ولا أحب المثاليات العليا لكني مهموم فقط بمصير الفرد الكائن البشري، تلك الوحدة الضئيلة التي يعتمد عليها العالم وفيه وضع الرب ثقته وهدفه وغايته، هذا لو فهمنا الرسالة المسيحية فهماً صحيحاً.

المكتبة النفسية

من هذه السلسلة

فن المشورة	رولو ماي ترجمة د. أسامة القفاش
فهم الطبيعة الإنسانية	ألفرد أدلر ترجمة د. محمد مسعد
طريقة حياة	كارل روجرز ترجمة: د. أسامة القفاش
إشكالية الإنسان	رولو ماي ترجمة د. أسامة القفاش
تشريح النزعة التدميرية	إريك فروم ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد
من أنا	كارل يونج ترجمة د. أسامة القفاش
بحث الإنسان	رولوماي ترجمة د. أسامة القفاش
الحدود	د. هنري كلود ود. جون تونسيد ترجمة د. إيفيت صليب
الرجاء في وسط البوتقة	ايرث شيفر ترجمة د. إيفيت صليب

كيف ننمو	د. هنري كلود و د. جون تونسيد
	ترجمة حنا يوسف
الحدود في الزواج	د. هنري كلود و د. جون تونسيد
	ترجمة د. زكريا فاخوري
	ود. فينيس نيقولا
الحدود مع المراهقين	د. هنري كلود و د. جون تونسيد
	ترجمة د. إيفيت صليب
الحدود مع الأطفال	د. هنري كلود و د. جون تونسيد
	ترجمة د. إيفيت صليب
الأقوياء والضعفاء	بول تورنيه
	ترجمة د. أماني سمير
	وحنا يوسف
تأثير للأم	د. هنري كلود و د. جون تونسيد
	ترجمة د. إيفيت صليب

نُرحب بآرائك ومقترحاتك.. رجاء لا تتردد في الكتابة إلينا.. فهذا يُسعدنا



لدينا حلم

١٦ شارع محمود بسيوني - من ميدان
الشهيد عبد المنعم رياض- الدور السابع-
شقة ٢١- وسط البلد - القاهرة - مصر

☎ (+٢٠٢) ٢٥٧٩٨٤١٤
٠١٨٦٥٤٨٣٨٨
٠١٦١٣٧٣٢٩٨

www.el-kalema.com
info@el-kalema.com



علم نفس / مشورة

من أنا..؟

ذات لم تُكتشف بعد

مالذي سيجلبه المستقبل ؟ هذه المسألة التي يفتتح بها يونج الذات غير المكتشفة في هذا الكتاب الذي يعد أحد أكثر كتبه تأثيراً فليس هناك مشكلة أكثر أهمية في مجتمعنا من محنة الفرد في عالم اليوم الأكثر إنتظاماً وصرامة . هذا العالم الذي يسلب من إنسان هذا العصر حريته ويخضعها إلي سلطات المجتم الشمولي وهو الذي مازال مهيمناً حتي الأن : فبينما يقول يونج : إن مقاومة المجموعة المنظمة يمكن أن تتم فقط بواسطة فرد واحد ، إذ أن بفردانيته إنتظمت وتأسست هذه المجموعة . ومن ثم نجد أن يونج يكرس في هذا الكتاب قلمه وفكره لتأسيس الهدف من الفهم الذاتي والأدراك الذاتي . إن هذا الكتاب «من أنا ...»؟ ذات لم تكتشف بعد ، سيوقظ العديد من الأفراد علي الحياة الجديدة التي يجسدها في هذا الكتاب .

يجب أن نضع كل هذه الإعتبارات في ذهننا كلما ظهر كلام عن نظرية تعمل كدليل لمعرفة الذات. لا توجد، ولن توجد معرفة بالذات تقوم على أساس إفتراضات نظرية، لأن غاية معرفة الذات هو الفرد- وهو إستثناء نسبي وظاهرة غير منتظمة. ومن ثم؛ فليس العمومي والمنتظم هو ما يميز الفرد، لكن بالأحرى المتفرد.

معظم الناس تخلط بين "معرفة الذات" ومعرفة شخصية الأنا الشعورية الواعية. أي شخص له شيء من الوعي بالأنا يعتقد أنه من المفروغ منه أنه يعرف ذاته. لكن الأنا تعرف فقط محتوياتها وليس اللاشعور ومحتوياته. يقيس الناس معرفتها بذاتها بمدى ما يعرفه الإنسان المتوسط في بيئتهم الاجتماعية عن نفسه. ولكن ليس بمدى الوقائع النفسية الحقيقية المخفية عنهم في معظم الأحوال. ف... المجال تتصرف النفس مثل الجسد ببنيته التشريحية والفسيو... التي لا يعرف الشخص المتوسط الكثير عنها أيضاً. بالرغم ... يحيا فيها وبها، فمعظمها مجهول للشخص العادي، ونحتاج ... علمية خاصة للحصول على الوعي بما هو معروف في الج... داعي للحديث عما هو موجود أيضاً.

٠١٦١٣٧٣٢٩٨
www.el-kalema.com
info@el-kalema.com

ISBN 977-384-157-X 10 L.E



من أنا [977-384-157-X]



لدينا حلم